القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • مارس-أبريل 2003



معاً.. نعبر جسراً

العدد
المجلد 52

معارض ومؤتمرات

مارس 2003

مؤتمر مهارات القرار الإداري
دبي 1 – 4

المؤتمر الدولي لتقنية الغاز
القاهرة 3 – 5

مؤتمر السلامة في مواقع العمل
المنامة 15 – 17

المؤتمر الخامس للنفط والغاز
الدوحة 16 – 19

المعرض الدولي للصناعات البتروكيماوية
الرياض 16 – 20

مؤتمر حسابات الطاقة والإدارة
جدة 22 – 26

يوم المهنة في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن
الظهران 23 – 26

الندوة العالمية للأنظمة والشبكات اللاسلكية
الظهران 24 – 26

أبريل 2003

معرض (أبوظبي) الدولي للكتاب
أبوظبي 2 – 12

مؤتمر ومعرض الشرق الأوسط الثالث عشر للنفط والغاز
المنامة 5 – 8

معرض الخليج للتعليم والتدريب
دبي 8 – 11

معرض مصر الفوتوغرافي
القاهرة 11 – 13

مؤتمر ومعرض التربية والتدريب
الكويت 13 – 17

مؤتمر ومعرض مهندسي السلامة
البحرين 14 – 16

قمة الشرق الأوسط الثالثة للغاز وسوائل الغاز الطبيعي
دبي 16 – 17

المعرض الدولي للكتاب
جدة 24

المؤتمر الدولي لسلامة الطيران
دبي 27 – 29

مؤتمر إدارة المشاريع وتنظيمها
بيروت 28 إبريل – 2 مايو

المواهب الشابة

تفتح القافلة صفحاتها لتبني المواهب الشابة الواعدة من الجنسين، في أي من مجالات الكتابة، وتدعو الراغبين في الكتابة إليها إلى إرسال أعمالهم إلى العنوان التالي:

ص. ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
فاكس 3336 873 3 966
للاستفسار هاتف 5039 873 3 966

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبد الله بن صالح بن جمعة

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
عبد اللطيف بن أحمد العثمان

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبد الرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبد العزيز العصيمي

المدير الفني
كميل حوّا

سكرتيرا التحرير
عبود عطية
خالد الطويلي

فريق التحرير
حبيب محمود
مأمون محي الدين
إبراهيم منصور (القاهرة)
ناجية الحصري (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
- لا يجوز إعادة نشر أي من موضوعات أو صور «القافلة» إلا بإذن خطي من إدارة التحرير
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

مارس – أبريل 2003
محرم – صفر 1424

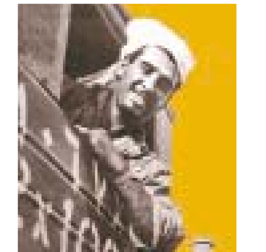
توزع مجاناً للمشتركين
للاستفسار عن الاشتراكات هاتف: 03-8746948

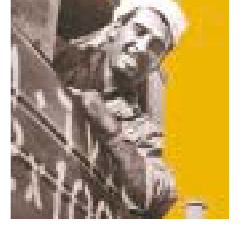
العنوان: أرامكو السعودية
ص. ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
فاكس: 03-8733336 البريد الإلكتروني:
alqafilah@aramco.com.sa

رسالة المحرر

1

تبدأ رحلة القافلة في عددها الجديد من حيث انطلقت في أيامها الأولى: أرامكو السعوديّة تصدر مجلة ثقافية منوعة، تمتعت على الدوام بتعلّق القراء بها. تبدأ الرحلة بالإقلاع مع طيور الفجر.. طائرات أرامكو السعودية التي تحمل موظفيها وعمالها كل صباح إلى مواقع أعمال الشركة المنتشرة (النائية) في مختلف أنحاء المملكة.. وتشاء الصدفة أن يُطل قائد الطائرة، الذي استضاف المجلة، من نافذة طائرته، تماماً كما أطل سائق شاحنة في عدد القافلة الأول منذ خمسين سنة.. الفارق هو تغير وسيلة النقل من وقت إلى وقت..



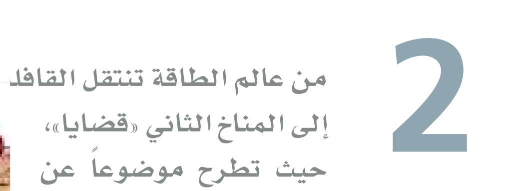




من الغلاف إلى الغلاف تعبر المجلة ستة مناخات، كما اصطلحنا على تسميتها.. عالم الطاقة هو المناخ الأول، وفيه موضوع عن سوق النفط والغاز، يشرح بلغة بسيطة، بعض مفردات ومقاييس هذه السوق التي يسمع الناس بتقلباتها كل يوم وتلتبس عليهم مدلولاتها.

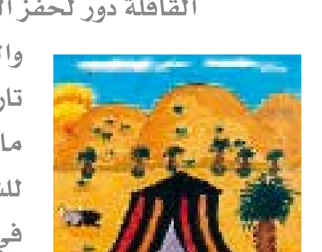
2

من عالم الطاقة تنتقل القافلة إلى المناخ الثاني «قضايا»، حيث تطرح موضوعاً عن أخلاقيات الحرب في الفتح الإسلامي، وتلقي الضوء من جديد في مواجهة أسئلة اليوم المُلِحّة على لمحات إنسانية مشرقة في أصول هذه الحرب. الموضوع الثاني في مناخ القضايا يتناول القراءة للتذكير بمكانتها وضرورتها في تطور الإنسان الفرد والمجتمع وأهمية التمسك بأهداب الكتاب.



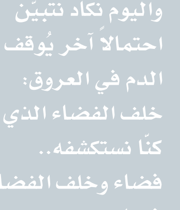
3

المحطة الثالثة خُصصت للبيئة والعلوم بأشكالها وتبدأ بموضوع حول بيئتنا الكبرى «الكون» ثم تلتفت إلى بيئتنا القريبة، باحثة، من وجهة نظر مراقب متفائل، عن أثر حملات التوعية في تصرفنا البيئي. ومن المتوقع أن يكون لهذا المناخ في أعداد القافلة دور لحفز الشعور بأهمية العلوم والبيئة عند هذا المنعطف من تاريخ الإنسانية، إضافة إلى ما يحمله من توجه خاص للشباب يعزّز شغفهم للمشاركة في نشاط الابتكار الذي يَعُمُّ أمم العالم المعاصر..الابتكار ذاته نُكرّس له صفحتين: قصة ابتكار، وقصة مبتكر.



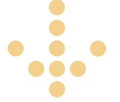
..وخلف الفضاء فضاء

أخذت الأقمار والمحطات الفضائية تكشف بتسارع مذهل أبعاداً جديدة للكون.. كلما اقتربنا من الإحاطة بها ازدادت ابتعاداً!
واليوم تكاد تتبين احتمالاً آخر يُوقف الدم في العروق: خلف الفضاء الذي كنّا نستكشفه.. فضاء وخلف الفضاء فضاء.



4

في المناخ الرابع تنعطف القافلة باتجاه ثقافة الحياة اليومية ببعدها الاجتماعي والثقافي. وفي هذا المناخ تحاول المجلة أن تعالج الموضوعات من زوايا مختلفة، تعود في الأساس لقناعتها بأن معالجة شؤون الحياة اليومية على بساطتها هي ثقافة كاملة لا تقل عن ثقافة الروايات ودواوين الشعر. في الحياة اليومية .. تروج عادات وتندثر عادات .. اليوم يحمل المدخن آفته الى خارج الغرف والقاعات والجلسات.
يلي ذلك،في مناخ الحياة اليومية، تقصي المجلة لحالة الراديو الذي خرج من دائرة الضوء وتبحث فرصة عودته من جديد.



ينتهي المناخ الثالث بصفحة الرأي: (اطلب العلم) ثم نحط الرحال مع فاصل تستريح فيه العين: صور فوتوغرافية من أجل التصوير، مع صورة الملف الكبرى التي يتم اختيارها في كل عدد لتكون أشبه بلوحة يحتفظ بها القارئ، هدية من المجلة.

5

المناخ الثقافي يبدأ بمقال عن الفكاهة، أحد أبلغ أشكال الثقافة الشعبية. وتتناولها المجلة لدى شعب لم تعرف عنه البشاشة هو الشعب الروسي.

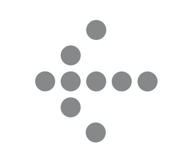
أحمد آل مبارك

كرّم المهرجان الوطني للتراث والثقافة هذا العام أحد رجال الأدب والدبلوماسية السعودية، الشيخ أحمد آل مبارك، وبهذه المناسبة التقته القافلة في حديث خاص مُطوَّل أثناء أسبوع تكريمه في الجنادرية.

6

والعدد الذي يبدأ بتحقيق له مدلول رمزي هو الارتحال ، ينتهي بموضوع له بدوره مدلول رمزي هو «الجسر» حيث سيضم كل عدد من أعداد المجلة ملفاً مستقلا عن موضوع يهدف إلى فتح نافذة على آفاق واسعة.. موضوع يحمل إليه أخباراً وأفكاراً وصوراً ومعارف توفِّر له زاداً غنياً وتثير فضوله ورغبته بمزيد من الاطلاع.





إن قافلة اليوم ليس لديها طموح أكبر من أن تكون قافلة الأمس المنوعة والحميمة والقريبة من قلوب الناس.. الفرق البسيط أنها اقتربت أكثر من المعارف والقضايا الملحّة في حياة الإنسان العربي، سواء أكانت هذه القضايا في مجال الطاقة أو البيئة أو الصحة أو التعليم أو الثقافة الأدبية أو الشؤون التفصيلية لحياته اليومية. المسألة مجرد محاولة لعبور جسر جديد.

المحرر

الرحلة معاً

إليكم .. القافلة الجديدة

القافلة يجب أن تسير ..
كان هذا هو قرار القارئ الذي شارك في استبيان المجلة الذي وزّع تمهيداً لتكوين قاعدة تنطلق منها إلى آفاقها الجديدة. ولأن القارئ هو الحاكم في بلاط الصحافة فقد نزلت المجلة عند حكمه..
فيما يلي رصد لرحلة تطوير القافلة إجمالاً، بينما نترك متعة اكتشاف التفاصيل لمطالعتكم في صفحات هذا العدد.

حين احتفلت مجلة «القافلة» بعيدها الذهبي بحضور وجوه بارزة من المفكرين والمثقفين والإعلاميين، كانت في الحقيقة تحتفل بهم، ممثلين لقرائها الذين ينتشرون عبر الأرض العربية. وكانت تقطع في ذلك الاحتفال وعداً بأنها ستظل على العهد معهم، تلتقي مع حاجاتهم للمعرفة وتلبي رغباتهم في ضرورة تحقيق وجود صحفي يتطابق مع واقع الإعلام، الذي يقفز كل دقيقة إلى طفرة أخرى ووضع جديد، لا بد من مواكبته والتفاعل معه.

لقد تعلمنا في أرامكو السعودية استخدام المجهر لنرى أدق الأشياء وأن ندعو شركاءنا في أي عمل ليتقاسموا معنا تعب النظر إلى هذه الأشياء الأدق، ومن ثم ننطلق إلى أهدافنا يحدونا الأمل بأننا بذلنا ما في وسعنا ولم يبق سوى النظر إلى نتائج إجراءاتنا وقراراتنا.

ذات يوم، قبل أشهر، كانت مجلة القافلة تحت مجهرنا الأكبر في أرامكو السعودية، وكان كبير الزائرين لغرفة الفحص رئيس الشركة، الأستاذ عبد الله جمعة، وعدد من نوابه، ومجموعة من موظفي إدارة العلاقات العامة، التي تحمل أمانة إرسال المجلة إلى قارئها لتبشر بأطراف المعرفة وضرورات الوعي ومطالبات التجدد والمعاصرة والمواكبة. قال الأستاذ عبدالله جمعة وهو يفحص الدقائق، كعادة أهل أرامكو: مجتمعنا يتغير.. العالم ذاته يتغير.. هناك من المستجدات ما تنوء به ظهور الصحف والمجلات والتلفزيونات ومسارب الإنترنت، وبالتالي.. بالتالي لا بد أن تعيدوا النظر في (قافلتنا). لا بد أن تخرج من بين يدي الشركة قافلة تحاول أن ترفع صوتا موحيا بالمتغيرات من حولنا.. كان للقافلة دور حين كان الحرف العربي المطبوع والمرسل عزيزا والآن يجب أن يكون لها دور مختلف بعد أن أصبح الحرف العربي المطبوع والمرسل غزيراً..

من هنا.. من نتيجة الفحص الأولي، تبادل المعنيّون، من مسؤولين ومحررين وقراء، الرأي حول انطلاقة جديدة لمجلة بلغت من العمر خمسين سنة، واحتفظت بجمهور كبير طوال هذه السنوات، يكنّ لها الكثير من الحب والذكريات: كيف تتغير القافلة؟ أو كيف تتطور؟ هل تخرج كلية من ماضيها أم تنطلق منه محتفظة ببعض روائحه الطيبة؟ هناك من قال: بل تتوقف القافلة حيث لم يعد للناس بها حاجة بعد أن اشتد زحام الأرفف واكتظت الأسطح بالصحون اللاقطة. وأخيرا، وليس آخرا، طرح السؤال الكبير: ماذا ستقدم القافلة غير ما يقدمه الآخرون؟

الحقيقة أن المجلة، بناء على السؤال الأخير الكبير، لن تقدم شيئا غير ما يقدمه الآخرون.

هي فقط تسعى في حياتها الجديدة لأن ترفع من مستوى الأداء الصحفي الذي تمارسه، في ظل إيمان جهاز تحريرها بأنها يجب أن تحاول تقديم زاد صحفي بمواصفات صحافية قياسية، تتحول مع الوقت إلى بنود عقد بينها وبين قارئها . كنا، بطبيعة الحال، ندرك خشية بعض مريديها من تغيير عادات حبيبتهم القافلة، لكن سياستها التحريرية الجديدة لا تلغي هذه العادات، فثوبها الجديد سيبخر بأنفاس من ماضيها الجميل: ستبقى القافلة (ثقافية منوعة) على أساس، مرة أخرى، من مفهوم جديد للثقافة المنوعة، يخضع مختاراً إلى تطلعات وهموم (متغيرة بدورها) عند الناس، ويتعامل مع ضرورة الاقتراب من مستجدات عصرنا التي باتت يصعب حصرها.

إذن فإن (قافلتنا) ستستمر وستظل معنية بوظيفتها الأساس كرسول صحفي من أرامكو السعودية يبشر بالمعرفة ويمثل وعاءً لأسباب الوعي عند الناس، كل الناس. لن تكون المجلة في رسالتها المتجددة انتقائية لفئة من الجمهور دون أخرى، وليس بمقدورها أن تتنازل بحثا عن قارئ تصطاده من رفوف التوزيع. هي تحاول أن يكون لها دور أكبر من ذلك، لأنها تذهب إلى القارئ باعتبارها هدية من هدايا المعرفة، لتخاطب عقله وحياته اليومية ووجدانه الأسمى.

وبناء عليه، إليكم (القافلة) الجديدة التي نأمل أن تحظى برضاكم وأن تنتقدوها ما وسعكم الانتقاد.

رئيس التحرير

قافلة القرّاء

ترحب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

إلى رئيس التحرير

تلقيت ببالغ الشكر العدد الخاص من مجلة القافلة وفهرس موضوعاتها لمناسبة احتفال المجلة بمرور خمسين سنة على صدورها. وإنني إذ أهنئكم على هذا الإنجاز المميز الذي يحتوي كثيراً من الموضوعات القيمة والجديرة بالتأمل، أرجو لمجلتكم مزيداً من النجاح والتقدم. مع أطيب تحياتي.

السفير
تركي الفيصل – لندن

نشكركم كل الشكر على إهدائكم لنا العدد الخاص من مجلة القافلة لمناسبة مرور خمسين عاماً على صدورها. وإننا إذ نفتخر بهذا الإنجاز الكبير في وطننا الغالي، نتمنى لمجلة القافلة السير قدماً على سبيل التطور نحو مستقبل زاهر. وتقبلوا خالص شكرنا وتمنياتنا لكم ولجميع العاملين في المجلة بالتوفيق والازدهار.

العميد الطيار
عبدالله بن خالد بن تركي آل سعود

تلقيت ببالغ السرور إهداءكم لي من مجلة (القافلة) العدد الخاص بمناسبة احتفال المجلة بمرور خمسين سنة على صدورها، ولقد سعدت كثيراً بقراءة الموضوعات الأدبية والعلمية والفكرية المنشورة في هذا العدد والتي سبق أن نشرتها المجلة على مدى خمسين عاماً مضت، وهو عمل يستحق فعلاً الإعجاب والتقدير. مع أطيب تمنياتي لكم، ولمجلة القافلة بدوام التوفيق والنجاح،،، وتقبلوا أطيب تحياتي.

السفير
صالح بن منصور الراجحي – سيئول

تلقيت بكثير من الشكر والتقدير رسالتكم الرقيقة المرفق بها إهداؤكم القيم للعدد الخاص بمجلة القافلة والذي صدر بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على صدورها. أثمن لكم هذه المبادرة مؤكداً بأن هذا الإهداء سيكون ضمن أهم ما سيحتفظ به في مكتبة الجزيرة.

رئيس تحرير جريدة الجزيرة
خالد بن حمد المالك

حبل الوصال يا رفيقة العمر!

يسعدني أن أتقدم لكم بأطيب التهاني و التمنيات بمناسبة احتفالكم بمرور نصف قرن على صدور هذه المجلة الثقافية الرائدة.. ويسعدني إطلاعكم أنني كنت من متابعي مجلتكم الرصينة منذ سنوات الدراسة المبكرة في الخرطوم، حيث كانت تصلني المجلة بالبريد ... وما أنا إلا نموذج لجيل كامل واكب القفزات التي شهدتها هذه المجلة الرائعة. آمل أن أتلقى أعداد المجلة مرة أخرى من موقعي الحالي وبالعنوان المرفق ....

عبد رب النبي شاهين
مدير مكتب وكالة أنباء الإمارات
وقناة (أبوظبى) بالرياض

القافلة: التقدير لك وللأجيال التي واكبت القافلة، مجلتك ستصلك على عنوانك الجديد.

Q أم G ؟

كانت القافلة تصلني باستمرار، وأحتفظ بأعدادها القديمة كمرجع لا ككل أو معظم المجلات، وما أذكر استطلاعاً عن استمرارها إلا وتجاوبت معه خشية انقطاعها وقد أدمنت عليها، وليس علاج إدمانها الذهاب إلى مستشفى الأمل لأن إدمانها صحة وتعاطيها عافية وثقافة. لي كتب منشورة وقد تقاعدت بعد الأربعين وهي سنوات قضيتها في ميدان التعليم. هذا تعريف خفيف لأن قلبي يشتاق للقافلة الحافلة. فهل يطول الانتظار؟ على فكرة الـ Q في اسم القافلة بالإنجليزية مفروض أن يكون لغوياً G وليست (الكافلة)!

على محمد العيسى، الرياض

القافلة: يسعدنا اهتمامك ومحبتك وهاهي القافلة بين يديك، أما بخصوص كتابة اسم المجلة على هذا النمط فقد جاء متوافقاً مع ما اتفق عليه معظم الكتاب بكتابة الصوت العربي ق بـ Q.

القريب البعيد

إيماناً مني بأن الثقافة لا تعرف الحدود ولا الجمود، بل هي جسر للمحبة والتواصل وبحكم عملي كمدرس للعربية شغوف بمطالعة كل ما هو جديد ومفيد في الآداب والعلوم..أراسلكم من بلدكم الشقيق الجزائر، آملاً تفضلكم بإرسال أعداد من مجلتكم الغراء إلينا ... ومن جانبي سأعمل بدوري للمشاركة في مجلتكم وذلك بإرسال موضوعات متنوعة من اهتماماتي في المجالين التربوي والأدبي ...

عمر بن محمود – الجزائر

القافلة: نقدر لك هذا الاهتمام .... وسنضع اسمك على قائمة توزيع المجلة لتصلك بانتظام بمشيئة الله. ونحن نرحب دوماً بمساهمات قرائنا.

إرشاد المتأخرين!

نشكر القافلة على تقديم النافع والمفيد في الموضوعات المطروحة لكل الأذواق ولجميع المستويات، كذلك نشكرها على طلب التقدم والسمو اللذين تتطلع إليهما مجلتنا الحبيبة وما الاستفتاء الذي وزعته قبل فترة إلا دليل على ذلك. يسعدني ويشرفني أن أكتب للقافلة ولأول مرة عن موضوع أرى أن فيه فائدة طيبة وهو الإرشاد الطلابي فهو العمل الذي أتشرف بالانتماء إليه. الموضوع المراد التحدث عنه هو التأخر الدراسي لدى البعض وإلقاء الضوء على تعريفه، مظاهره، أسبابه ثم نكمل الخدمات الإرشادية والعلاجية لاحقاً.

خالد بن سليمان الرجيعي

القافلة: نشكر لك اهتمامك الكبير بموضوعات القافلة ونأمل أن تجد مساهمتك فرصتها المناسبة للاستفادة منها.

القافلة تبقى وللتخصص مجلته !

كما تعلمون فإن لدى أرامكو السعودية العديد من المواهب الأدبية المميزة والأقلام البارزة، فلماذا لا تقوم القافلة بالبحث عن هؤلاء واستقطابهم للكتابة فيها لتحمل مجلتنا عبق أرامكو السعودية وأريجها الفوّاح. كذلك أرجو أن تقوم القافلة بإبراز أنشطة شركتنا وأعمالها الفريدة. أما بالنسبة لتحويلها إلى مجلة متخصصة فأنا لا أؤيد ذلك. ولكن إن كان هناك قرار قد اتخذ بذلك فلماذا لا تصدر أرامكو السعودية مجلة متخصصة أخرى تشكل إضافة جديدة ورافداً من روافد العلم والمعرفة يكون لأرامكو السعودية الفضل بعد الله في إظهاره ليخدم المصلحة العامة ويعمل على إظهار تميزها في جميع المجالات.

د.محمد حمد خليص الحربي

القافلة: نشكرك على أفكارك وإحساسك الوطني المخلص ونود أن نعلمك بأن هناك توجهاً لاستكتاب الأقلام المبدعة ليس فقط في أرامكو السعودية بل في المملكة بشكل عام. أما بخصوص اقتراحك فإنه يبقى قابلاً للنقاش حيث أن أبواب الشركة مفتوحة دائماً على كل الاحتمالات الجادة.

طبل أحمر

سألت صديقاً ناصحاً مرة،
ماذا تعرف عن ذي الدرة،
في تلك الناحية اليسرى.
قال صديقي: طبلٌ
يرسل ماءً أحمر.
قلت له: كلا لا تسخر
ذاك القلب الرباني
ليس وعاءً لدم قانِ
بل هو طرفا بستانَ
بل هو صندوق لأماني
تجعل وجه الدنيا أخضر.

سهام سيّد أحمد حبيب

نعمل لغدنا

عام للابتكار
من جدّ جدّد.. ومن جدّد وجد!

بكم من الابتكارات – صغيرة أم كبيرة – خرج العام الماضي الذي كرسته أرامكو السعودية للابتكار؟ في العشر سنوات الأخيرة امتلأت منشورات الشركات الكبرى ومكتبات إدارة الأعمال بموضوعات وكتب عن أهمية الابتكار والتجديد في محيط العمل. وكان ذلك نتيجة مباشرة لحقيقة أساسية توصل إليها المجتمع الاقتصادي العالمي مردها أن الابتكار هو أكبر مصدر للثروة في العصر الحديث.

لكن روح الابتكار في الحقيقة ليست جديدة على أرامكو السعودية، فبدءاً من صعوبات العمل في الصحاري النائية في بدايات أعمال التنقيب، وصولاً لأعلى تقنيات اليوم، كانت أعمالها تحتاج باستمرار لمبادرات ابتكارية، لكن الأمر يختلف اليوم تبعاً لاختلاف واقع الصناعة والشركات.

لقد قادت الحملة لجنة الابتكار، التي وضعت نظام إدارة الأفكار – المحرك الرئيس للمبادرة – وهو نظام إلكتروني يتولى جمع الأفكار التي يتقدم بها الموظفون بشكل تصل به إلى لجنة الابتكار مباشرة. وقد تجمع في هذا النظام منذ إنشائه حوالي 4000 فكرة، تتولى لجنة الابتكار العامة فرزها وتصنيفها وتقويمها كي توضع موضع الاختبار.

وقد تم الإعلان عن 30 ابتكاراً ناجحاً حتى الآن شكّل بعضها إضافة لا يستهان بها لأساليب عمل الشركة، منها ابتكار لأحد المهندسين لطريقة استخدام كمية من الكوابل البحرية ذات كمية أقل من الألياف ضمن شبكة الاتصالات الخاصة بمعمل الغاز في حرض، مما حقق وفراً للشركة بحوالي 60 مليون ريال.

كما يجري الآن تركيب نحو 400 من «صمامات الفصل الذكية» التي ابتكرها أحد أخصائيي الأجهزة في دائرة الخدمات الهندسية وهذا الصمام يقوم بغلق خطوط أنابيب المواد الهيدروكربونية في حالات الطوارئ الخطرة.

كما قام أحد الجيولوجيين بتطوير مؤشر حراري لفحص صخور الآبار وقياس إنتاجية الزيت يمكن من خلاله التوصل إلى تقديرات أكثر دقة لإنتاجية الحقول المستكشفة.

كذلك قام أحد الموظفين في خدمات السكن المركزية بالبحث عمن يشتري خراطيش الحبر المستخدمة في النسخ والطباعة وإعادة تدويرها، وتوصل من خلال هذه الفكرة إلى تحقيق الشركة مكاسب بأكثر من مليون ريال في السنة.

وفي كل يوم تجد أفكارٌ ابتكارية جديدة طريقها إلى النور، فرسالة الحملة الأساسية أن يقتنع كل موظف بأنه قادر على أن يبتكر إذا اجتهد، وكان لديه الحافز لأن يتغلب على صعوبة ما بفكرة جديدة. ويصبح التجديد نمط في التفكير. وهذا لا يعود بالفائدة على الشركة فحسب، بل عليه أيضاً كموظف وإنسان. من جدّ جدّد..ومن جدّد وجد!



مع طيور الفجر ..

يوم في حياة طيّار

مثل الطيور، مع مطلع الفجر، يتوجه طيارو أرامكو السعودية إلى طائراتهم استعداداً لنقل مئات الموظفين إلى مواقع عملهم المنتشرة من منصّات في البحر إلى معامل في أعماق الصحراء.. الزميل خالد الطويلي يسافر مع هذه الطيور ناقلاً إلينا قصة يوم في حياة الكابتن هيثم الحسيني.

تصوير: عبدالله الدبيس وحسين رمضان



1 - طائرات في قاعدة انتظارها في الدمام 2 - هيثم الحسيني قبل انطلاق الرحلة من الدمام 3 - الكابتن ومساعده يجهزان الطائرة للإقلاع

يصل عدد كبير من العاملين في أرامكو السعودية إلى مواقع أعمالهم جواً على طائرات نفاثة وأخرى مروحية، من أحجام متعددة وبطاقات استيعاب مختلفة، توفرها الشركة لنقل موظفيها من مواقع أعمالها وإليها، التي غالباً ما تكون بعيدة من مركزها في الظهران.

ومن تلك المواقع ما هو عبر عرض المملكة العربية السعودية الشاسع في مدينتي جدة وينبع على الساحل الغربي، ومنها ما هو ناءٍ على منصات بحرية في أواسط الخليج العربي، أو ما هو ضارب في رمال صحراء الربع الخالي، على نحو يجعل الطيران وسيلة المواصلات والنقل الأنسب لقطع هذه المسافات.

ولكي تسير جميع هذه الرحلات بانتظام، يعمل كل من هشام مصباح، وصلاح الدوسري، وفؤاد الجاهلي، من مكتب تخطيط وجدولة الطيران على إعداد جداول سنوية للطيارين ومساعديهم تتوافق مع جداول تدريباتهم وإجازاتهم وحتى مواعيدهم الطبية، وذلك لتفادي أي تعارض بينهم يمكن أن يؤثر على انتظام الرحلات.

في الظلام الدامس

حين يكون في جدول الطيار هيثم الحسيني، الذي يعمل في إدارة الطيران في أرامكو السعودية منذ عشرين سنة، رحلة مبكرة مثل هذه الرحلة التي استضاف فيها محرر «القافلة» ومصوّرها، فإنه يستيقظ من نومه في الثالثة صباحاً، ويخرج من بيته ليستقل سيارة توفرها إدارة الطيران في حدود الرابعة والنصف لكي يقلع بالطائرة في تمام السادسة.

وصل الحسيني إلى مبنى الطيران بمطار الملك فهد الدولي بالدمام، في الخامسة والربع والظلام لا يزال دامساً. دخل فوراً إلى مكتب عمليات الطيران الذي تسلّم منه معلومات الرحلة: حالة الطقس في كل محطة من محطات الرحلة ومقدار الوقود الموجود في الطائرة. في هذا اليوم كان هناك نقص في طاقة تخزين الوقود لدى محطة رأس تناقيب، ولذا قرر الحسيني تزويد الطائرة بمقادير إضافية ليتمكن من إتمام الرحلة.

خالد الزهراني، من مكتب عمليات الطيران، أبلغ الحسيني بأن درجة الحرارة سوف تكون منخفضة نسبياً في محطة المغادرة، وفي باقي محطات الرحلة الثلاث الأخرى. هذه المعلومات كانت جيدة للطيار، لأن أداء الطائرات يتحسن كثيراً في الجو البارد إذ أن المحركات تتمكن من استيعاب مقدار أكبر من الأوكسجين.

نظرة من الداخل

منظر قمرة القيادة لمن لا علم له بها مُربك. هناك ساعات وشاشات وخرائط ومفاتيح كثيرة، تنتشر أمام ملاّحَيّ الطائرة وعلى جانبيهما وفوقهما.
بعد تفقد الطائرة من الداخل، عاد الحسيني مرة أخرى إلى أرض المطار وحمل «كشافاً» صغيراً وجال حول الطائرة ليفحص جسمها الخارجي. نظر داخل المحرك وتفقد ريش المراوح، وأطال البحث عن أي شرخ أو كسر أو تسرّب ظاهر أو شقوق يمكن أن تؤثر في السلامة، وحين اطمأن إلى سلامة كل شيء صعد إلى الطائرة من جديد منتظراً وصول الركاب.

على مقودي الطائرة توجد قائمة فحص «Check List» ملصقة، يقرأ منها قائد الطائرة تعليمات، فيؤكد مساعده إتمام الفحص وهكذا ينفذان معاً، من خلال تلك الأجهزة والساعات والمفاتيح، عملية تبدو تلقائية.
يقول الحسيني عن ذلك: «هذه الساعات والمفاتيح الكثيرة هي بالنسبة للطيار كمفاتيح الإضاءة المنزلية تماماً. كأنك جمعتها كلها في منطقة واحدة من المنزل، فأنا أعرف ما هو منها للضغط أو الهواء أو ما يخص المحركات والوقود والكهرباء والنظام الهيدروليكي، كما تعرف أنت وظائف مفاتيح الإنارة المنزلية».

4 - الموظفون أثناء صعودهم الطائرة 5 - وداخل الطائرة 6 - وبعد الوصول إلى مطار رأس تناقيب

الرجاء ربط الأحزمة!

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً عندما أعلن الحسيني عبر اللاسلكي أنه جاهز للتحرك بالطائرة نحو المدرج. كانت درجة الحرارة في مطار الدمام ثماني درجات مئوية والرؤية واضحة إلى مسافة 5 أميال، وبمجرد ارتفاع عجلات الطائرة عن ملامسة الأرض حدث هدوء عجيب كان ملائماً للتأمل في منظر السماء ثم العودة للنظر إلى الأرض التي بدت أكثر مسالمة من بعيد.

يعرف الحسيني أن عمل الطيار صعب وخطير ويحمّله أعباء ومسؤوليات كبيرة تتعلق بأرواح المسافرين معه على متن الطائرة، فالانتباه واليقظة الدائمة مطلوبان باستمرار على المستوى نفسه وبالدقة نفسها، لأن هذا العمل لا يقبل أقل من ذلك في أي وقت. يقول في هذا الصدد: «هناك قائمة طويلة من البنود التي يجب على قائد الطائرة أن يوليها اهتمامه، وتأتي محركات الطائرة على رأس هذه القائمة.»

ويفضل الحسيني الإقلاع والهبوط من المطارات ذات المدارج الكبيرة والواسعة التي تنيرها إضاءة ممتازة، لأن الإقلاع والهبوط أصعب مهمتين في الطيران. ولذلك فإنه يعد الطيران لمسافات بعيدة أيسر من السفر لمسافات قصيرة تتكرر فيها عمليات الإقلاع والهبوط.

المحطة الأولى

بعد عشر دقائق من إقلاعنا من مطار الدمام وتحليقنا بسرعة 215 كيلو متراً في الساعة، كنا قد



طائرات تستعد للإقلاع عند الفجر



1– محمد الغامدي يشرح للمحرر خطة رحلة المروحية 2 – وأثناء عملية الفحص التي تسبق الإقلاع 3 – الغامدي في قمرة القيادة 4 – الموظفون يصعدون إلى المروحية 5 – وفي داخلها 6 – طائرة تقلع ومروحية تهبط

هبطنا في مطار رأس تنورة حيث ارتفعت درجة الحرارة مع صعود الشمس إلى عشر درجات مئوية، وكانت الرؤية واضحة إلى مسافة 4 أميال. وكان معنا من الدمام 22 راكباً بقي جميعهم على متن الطائرة، التي صعد إليها 52 راكباً إضافياً يواصلون الرحلة ليصل مجموع ركاب الطائرة إلى 74 راكباً.

النقل المروحي

في منطقة رأس تنورة، التي يعمل فيها أكثر من 6400 موظف من أرامكو السعودية، يوجد أكبر ميناء لتصدير النفط الخام في العالم، ومصفاة تبلغ طاقتها الإنتاجية 325 ألف برميل يومياً ومنطقة خزانات للمواد المكررة يعمل في إدارته وتشغيله الكثير من الموظفين، الذين صعدوا إلى هذه الطائرة. ويعد مطار رأس تنورة، أحد مطارين لتشغيل المروحيات التي تنقل الموظفين والمؤن إلى المناطق المغمورة وغيرها برأس تنورة والسفانية، التي تعد أكبر (نفّاطة) مغمورة في العالم.

النقل الجوي بالمروحيات من هذين المطارين يسهم على مدى 24 ساعة في نقل الركاب إلى المحطات البحرية والبرية في المنطقة، ومنها الرحلات اليومية المنتظمة من مجمع المرجان بمنصاته الثلاث وإليه، ومجمع الظلوف المكون من أربع منصات، إضافة إلى منصات الحفر ومنطقة السفانية وأبو سعفة والبري.
والمروحيات لا تخدم فقط مجال نقل الموظفين والمؤن، بل تشارك أيضاً في الإخلاء الطبي الذي يقول عنه محمد صالح الغامدي، طيار المروحيات بإدارة الطيران في رأس تنورة، إنه «العمل الأكثر مردوداً من الناحية المعنوية»، فإدارة الطيران هي إحدى إدارات أرامكو السعودية التي تستجيب لنداء 110، الخاص بحالات الطوارئ والاستجابة السريعة، إضافة إلى المستشفى والأمن الصناعي والمسؤولين المعنيين في الإدارة.

ومن ضمن المهام التي تساند في تقديمها المروحيات أعمال العلاقات العامة، ومن بينها مهام التصوير الجوّي التي صحبنا محمد الغامدي في إحداها لتصوير مناطق في رأس تنورة والظهران وما بينهما من مدن ومشاهد.

في رأس تنورة خرج طلبة مدرسة أرامكو السعودية ومعلموها إلى ساحة المدرسة الخضراء ليشكّلوا لنا حرفي R و T الدّالين على اسم مدينتهم، وبعد تصوير المنشآت الصناعية هناك اتجهنا إلى الظهران، وفي الطريق شاهدنا واحة القطيف وفرضة دارين التي تلتف من حولها قوارب الصيادين.

وقبل الاتجاه إلى مهبط المروحيات بالظهران قمنا بجولة على شاطئ نصف القمر وكورنيش الخبر، حيث شاهدنا هناك عدداً من الطيور المهاجرة التي استقرت على بعض الجزر الصغيرة المغمورة بماء البحر قرب الشاطئ لتلوّن صفحة الماء بألوانها اللافتة.

في الجو من جديد



أقلعنا مع الحسيني من مطار رأس تنورة في الساعة 6:35 صباحاً، وقد اختلف منظر الإقلاع مرة أخرى لأن ضوء الشمس كان قد ملأ السماء في هذا الجزء من الرحلة حتى محطة تناقيب التي تقطعها الطائرة في 21 دقيقة. قال لنا الحسيني «الارتفاع الذي تحلق عنده الطائرة يزداد بازدياد مسافة الرحلة، لذلك فإن الارتفاع في هذا الجزء سوف يزيد فوق عشرة آلاف قدم، وكذلك ستزداد سرعة الطائرة إلى 250 عقدة جوية»، أي ما يعادل 475 كيلومتراً في الساعة.

مرحباً بكم في تناقيب

كانت درجة الحرارة في تناقيب حين وصولنا سبع درجات مئوية، وكان الضباب كثيفاً ومستوى الرؤية الواضحة لا يتجاوز خمسة أميال، ولكننا تمكّنا –ولله الحمد– من الهبوط بسلام. وقد أُبلغنا عند الهبوط بأننا سنضطر إلى البقاء في المطار مدة قد تصل إلى الساعة في انتظار وصول الطائرات المروحية التي تنقل الموظفين من المنصات البحرية التي تقع وسط مياه الخليج العربي. ولما كان الضباب الكثيف يؤثر في مستوى الرؤية لا سيما داخل البحر، فإن تأخر وصول هذه المروحيات كان بسبب عدم إقلاعها من المنصات في انتظار أن ينقشع الضباب.

نزل جميع ركاب الطائرة القادمين من الدمام ورأس تنورة في تناقيب، وبقي معظمهم في المطار ينتظرون معنا وصول المروحيات التي ستنقلهم إلى المنصات البحرية، حيث مواقع أعمالهم، وبقينا نحن في انتظارهم جميعا على متن الطائرة، حيث أرسل لنا الموظفون في المطار إفطاراً يواسينا.

توجد في منطقتي تناقيب والسفانية مواقع عمل لأرامكو السعودية على اليابسة وفي المناطق المغمورة يعمل فيها نحو 1739 موظفاً، منهم أولئك الذين ينتقلون من المنصات البحرية في عطلهم الأسبوعية على متن مروحيات تصل بهم إلى مطار تناقيب، وهو المطار الثاني للنقل المروحي في أرامكو السعودية، ويستقلون من هناك طائرات مثل التي يقودها الحسيني اليوم، طرازها بوينج 700-737 ليواصلوا بها السفر معه نحو وجهتهم النهائية.

وتقع منصة (مرجان – 2) البحرية لفصل الزيت من الغاز على عمق 200 قدم في مياه الخليج العربي ضمن المناطق التابعة لمنطقة تناقيب الصناعية، وهي إحدى المحطات التي تخدمها الطائرات المروحية من مطار رأس تناقيب، فتنقل الموظفين منها وإليها، كما تعدّ جزءاً من مجمع المرجان الذي يضم –أيضا– منصتي (مرجان –1) و(مرجان –3) وهو يعد الأكبر









مروحية تغادر منصة (مرجان-2) بعد إنزال ركابها من الموظفين

من نوعه في العالم، ويعمل على تشغيله أكثر من 120 موظفاً موزعين بين أعمال الصيانة والتشغيل ووحدات المساندة التي تشمل وحدة هندسية ووحدة تفتيش. ويستخدم جميع هؤلاء الموظفين النقل المروحي.

سلطان القحطاني، القادم من أبها عروس عسير في المنطقة الجنوبية، يعمل مشغّلاً في منصة (مرجان -2) منذ ما يزيد على أربع سنوات، ويداوم في هذا العمل لأجل ذلك على نظام (3/7) و(4/7)، أي أنه يعمل سبعة أيام متواصلة مدة 12 ساعة في اليوم، ثم يأخذ إجازة ثلاثة أيام، ثم يعمل سبعة أيام أخرى متواصلة ليأخذ بعد ذلك إجازة أخرى أربعة أيام.

وهكذا يصبح سلطان واحداً من بين 75 موظفاً يشغّلون منصة (مرجان - 2) ويستخدمون هذه الطائرات في الإجازة السنوية وفي بدايات العطلات الأسبوعية ونهاياتها.

ينطلق من مطار رأس تناقيب أكثر من 25 رحلة يومية، لنقل 700 راكب تقريباً من المعامل التابعة لأرامكو السعودية، فيما نُقل 80198 راكباً أثناء 4196 ساعة طيران من مطار رأس تنورة خلال عام 2002 م فقط.

مناظر بحرية ممتعة

عندما يستقل هؤلاء الموظفون المروحيات فإنهم يحلقون على ارتفاع 3000 قدم فوق سطح البحر، وينطلقون بسرعة تصل إلى 75 عقدة جوية (أي ما يساوي 100 ميل في الساعة)، ويشاهد كثير منهم أثناء هذه الرحلة المتكررة، بعض الدلافين التي تقفز فوق الماء، وبعض زوارق الصيد الخشبية التقليدية التي تجوب تلك المناطق باستمرار بحثاً عن السمك والربيان، بالإضافة إلى بعض الطيور التي تسبح في السماء هنا وهناك مبتعدة عن هدير محركات هذا الطائر الضخم الذي اقتحم عالمها دون استئذان.

تظل الطائرات أثناء تحليقها على اتصال دائم ببرج المراقبة الذي يرتبط بدوره بخطين مع مقر أرامكو السعودية ومع قاعدة الملك عبد العزيز الجوية. ويزود برج المراقبة الطيارين بمعلومات مفصلة عن الطقس، واتجاه الرياح وسرعتها، ودرجة الحرارة وكثافة الرطوبة، والضغط ومعلومات عن خط السير.

كان الطيار المساعد للحسيني في هذه الرحلة هو مشتاق شودري، الذي يصف هيثم بأنه «رجل ممتاز الصفات ويسهل التعامل معه، وهذا يسهل علي أنا مهمتي ويوفر لنا أفضل الظروف للعمل داخل قمرة القيادة. إنه طيب جداً».

جمع شودري مع هيثم الحسيني موقف نادر هو أحد موقفين مرّا على الحسيني وحُفرا في ذاكرته

1- زوارق صيد خشبية في عرض مياه الخليج 2- ناقلات الزيت في الجزيرة البحرية في رأس تنورة 3- خزانات لتخزين المواد المكررة 4- فرضة بحرية لتحميل السفن بالمواد البترولية 5- خزانات الزيت الخام

خلال عقدين تقريباً من الطيران إلى مواقع أعمال أرامكو السعودية.

كان الموقف الأول خلال رحلة من الدمام إلى ينبع على طائرة طرازها (200-737) في عام 2001م. يقول الحسيني: «قبل نصف المسافة، وعندما اقتربنا من منطقة القصيم، ارتفع ضغط الزيت في محرك الطائرة الأيمن إلى درجة فرضت علينا إطفاءه والتحليق من دونه، وقد أبلغت الركاب بهذا، لأننا اضطررنا إلى العودة بالطائرة فوراً إلى الدمام باستخدام محرك واحد. وفي الدمام استُبدلت الطائرة، وأسعدني أن جميع ركابها (وكان عددهم 82 راكبا) عادوا ليستقلوا معي الطائرة البديلة.

وانقشع الضباب

وصلت أخيراً المروحيات محملة بموظفي المنصات البحرية، فصعد منهم53 راكباً إلى طائرتنا. وبعد صعودهم بدقائق حلقت الطائرة من جديد باتجاه رأس تنورة، التي تُذكّر الحسيني بالموقف الصعب الثاني، الذي مر به، إذ حدثت في رحلة سابقة له من تناقيب إلى رأس تنورة مشكلة في إحدى عجلات الطائرة.

يقول الحسيني عن هذا الموقف: «اقتربنا من المدرج للهبوط، وأنزلت عجلات الطائرة، وكانت القراءة لدي تشير إلى أن العجلة الخلفية اليمنى لم تنزل تماماً. فألغينا عند ذلك الهبوط في رأس تنورة وأكملنا إلى الدمام، وحلقت بالطائرة على ارتفاع

طيور بحرية مهاجرة تشدّ الأنظار إليها أثناء الرحلة






مرسى زوارق صيد في دارين

500 متر فقط قرب المراقبة الأرضية، حتى يمكن النظر بالعين المجردة لتحديد وضع الإطار، ولكن لم يستطع أحد أن يعرف إن كان الإطار قد نزل تماماً أم لا، فقررت أن أتخلص من حمولة الطائرة من الوقود حتى لا يسبب مشكلات لو تعرضت الطائرة لحادث لا سمح الله، ولكن الله سلّم، وهبطت الطائرة دون مشكلة، وقد اتضح لاحقا أن هناك عطباً تصنيعياً وراء المشكلة، وقد نوقش الأمر مع الشركة المصنّعة. وعن شعوره الشخصي في مواجهة هذه المشكلة قال: «أثناء حدوث المشكلة لم أشعر بخوف ولا ارتباك، لأنني كنت مشغولاً عن ذلك بالتفكير في إيجاد حلول سريعة، وكان همي الأكبر هو ركاب الطائرة، ولكني شعرت بحجم المشكلة التي مررنا بها بعد الهبوط بسلام، فبعد ربع ساعة من وصولي إلى المنزل في ذلك اليوم، اتصل بي رئيس الشركة، الأستاذ عبدالله جمعة بالهاتف ليهنئني بسلامتي وسلامة جميع الركاب في الرحلة. وكنت أظن أن أحد الزملاء يحاول ممازحتي في البداية قبل أن أتيقن لاحقاً من أن محدثي فعلاً هو رئيس الشركة، وقد سررت كثيراً باهتمام الإدارة بما حدث على أعلى مستوياتها».

نستعد الآن للهبوط النهائي

عند اقترابنا من مطار رأس تنورة بدأ الحسيني في مخاطبة المطار محدداً موقعه واتجاهه وسرعته. وأعطاهم معلومات عن المسافة المتبقية والوقت المتوقع للهبوط في المطار. في الساعة الثامنة هبطنا في رأس تنورة مرة ثانية هذا الصباح، وقد نزل من الطائرة معظم ركابها ولم يبق منهم إلا عدد قليل أكملوا معنا السفر نحو محطتنا قبل الأخيرة في مطار الأحساء، وقد استغرقت الرحلة إلى هناك عشرين دقيقة. في الأحساء نزل جميع الركاب الباقون ولم يصعد ركاب جدد، وأقلعنا من هناك مباشرة في الساعة 8:44 باتجاه المحطة الأخيرة لهيثم الحسيني في الدمام.

الحسيني عن قرب

لدى الحسيني ثلاث بنات، أكبرهن تبلغ من العمر 18 عاماً وهي طالبة جامعية، والثانية تبلغ من العمر 16 عاماً والثالثة 14 عاماً، وهما تدرسان في مدارس جامعة الملك فهد للبترول والمعادن. ويؤثّر الطيران بطبيعة الحال في حياته العائلية بالسلب والإيجاب «كأي عمل آخر»، فهو يوفر له وقتاً أكثر خلال اليوم للأعمال الخاصة والأسرية، ولكنه، في نفس الوقت، يحرمه من الأعياد وعطل نهاية الأسبوع التي يحلق خلالها بطائرات الشركة، إضافة إلى ساعات العمل المتأخرة جداً أو المبكرة جداً، مما يتسبّب، أحياناً، في خروجه من منزله قبل أن تستيقظ بناته وبعودته بعد ساعة نومهن.

كانت هذه هي قصة يوم واحد من أيام عمل الكابتن هيثم الحسيني والموظفين المسافرين معه، ولكن باقي أيام الأسبوع قد تختلف في جدول السفر ومحطاته، وكذلك هي حال باقي طياري أرامكو السعودية ومساعديهم، الذين يصل عددهم إلى 124 طياراً، فهناك أكثر من 16 محطة أساسية تخدمها طائرات الشركة في الظهران والدمام وبقيق والأحساء ورأس تنورة وتناقيب والحوطة وحرض والرياض وجدة وينبع، بالإضافة إلى أربع محطات ضخ على طول خطوط الأنابيب، شرقاً وغرباً، عبر أراضي المملكة العربية السعودية، حيث يجري الإقلاع والهبوط ثماني مرات، عدا المحطات التي تصلها المروحيات.

يدرّب الحسيني على قيادة طائرة بوينج ٧٣٧، ويطير الآن بما مقداره ثمانون ساعة طيران في الشهر الواحد، وتحسب الساعات من وقت إقلاع الطائرة إلى وقت هبوطها. ولا يدخل فيها وقت تفحص الطائرة أو تجهيزها للطيران أو أوقات الانتظار والتأخر في المحطات للظروف الجوية وخلافه. إضافة إلى 80 ساعة طيران في الشهر يقضي الحسيني أوقاتاً إضافية في مكتبه بمبنى الطيران في مطار الملك فهد الدولي، قبل أن يعود إلى زوجته وبناته في منزله في حي أرامكو السكني في الظهران.

1-2 طلاب مدرسة الشركة ومعلموهم يشكّلون حرفي RT الدالّين على اسم مدينتهم
3- من مشاهد الرحلة، أغنام تسرح في الطريق ما بين رأس تنورة والدمام
4- الحي السكني في الظهران
5- بعد الهبوط مباشرة في مطار الدمام

طائرات الأمس .. طائرات اليوم

امتلكت أرامكو السعودية أولى طائراتها عام 1935م، وكان طرازها «فير تشايلد - 71»، كانت تستخدم لأغراض البريد والمسح الجوي. وقد بدأ نقل الموظفين على متن الطائرات منذ إنشاء إدارة الطيران عام 1947م حين اشترت الشركة طائرتين لنقل الركاب في الداخل والخارج، من طراز «DC3» و «DC4» بعد اتساع رقعة أعمالها وانتشارها الجغرافي.

ولغرض تشغيل شبكة نقل جوي لنقل الموظفين، تمتلك أرامكو السعودية اليوم ما مجموعه 38 طائرة، خمساً منها من طراز «بوينج 737» وحمولتها 135 راكباً، وثلاث طائرات طراز «DHC-8» حمولتها 37 راكباً، وطائرتين بحمولة: 12 راكباً وعشرة ركاب وثمانية ركاب. وتملك الشركة ما مجموعه 21 مروحية أكبرها طرازها بـ-214 وحمولتها 18 راكباً، وأصغرها بـ-206 حمولتها خمسة ركاب. وقد شغلت مقاعد هذه الطائرات المتعددة ومنها المروحيات في عام 2002م بما يصل إلى 413337 مرة من خلال 19508 رحلات حلّقت في الجو أكثر من 25554 ساعة.



«معانا» نفط!

ألف باء سوق النفط ... والغاز

تُحيط أخبار النفط، إنتاجاً وأسعاراً واستيراداً وتصديراً، بالمواطن العربي عبر وسائل الإعلام المتعددة. ولا تنتهي نشرة أخبار في أية فضائية إلا وأسعار برميل النفط المختلفة تشهد ارتفاعاً أو انخفاضا مع -أومن دون- ذكر الأسباب. الدكتور رمزي حدّاد* يستعرض فيما يلي ألف باء سوق النفط والغاز:

أصبح لمادة النفط مع مواد أخرى مترافقة معها، كالغاز الطبيعي مثلاً، ما يمكن تسميته بأدبيات سوق النفط وهي تشمل تعابير ومصطلحات وأسماء لا يفهمها إلا المتخصص أو المتابع لهذه الصناعة المتشعبة الأبعاد. إن معرفة مثل هذه المصطلحات التي تعتبر "ألف باء" النفط أصبحت مسألة مُلحّة للمواطن العربي بوجه خاص، لأن هذه المادة هي أهم المواد تأثيراً في حياته اقتصاداً وسياسة.

مجرد وحدة للقياس

قد يكون «مقياس الحجم» هو أول الأسئلة التي يطرحها المواطن العربي، لأن أخبار النفط تشير إلى كمية إنتاجه أو استهلاكه بـ«عدد البراميل» وبالملايين منها في العادة. وقد اعتمد البرميل كوحدة قياس وهو يحتوي على 42 (غالوناً أميركياً) أو نحو 150 لتراً من النفط الخام. لكن البرميل مجرد مقياس نسبي لأن النفط لا يصدر بالبراميل، بل عبر الأنابيب التي تمتد آلاف الكيلو مترات أو بوساطة ناقلات النفط العملاقة.

* متخصص في شؤون النفط



ماهو:

- برنت؟
- عربي خفيف؟
- غرب تكساس؟

السعر يتبع النوعية وتكاليف الشحن

أما من ناحية النوعية فإن نوعية النفط الخام تُحدد حسب نسبة جاذبية هذه المادة طبقاً لمقياس معهد البترول الأميركي (API). وتحدد هذه النسبة على أساس جاذبية الماء الصافي الذي حددت نسبة جاذبيته بعشر درجات على أساس محض استنسابي ليس إلا. أما السوائل الأخف من الماء كالنفط الذي يطفو على سطح الماء - إذا وضعت هاتان المادتان معاً - فقد حدد معهد البترول الأميركي نسبة جاذبيته بأرقام تزيد على عشر درجات. واعتبرت خامات النفط التي تقل نسبة جاذبيتها عن 20 درجة بأنها خامات ثقيلة كما اعتبرت الخامات التي تبلغ نسبة جاذبيتها ما بين 20 و25 درجة خامات متوسطة. أما الخامات الخفيفة فهي الخامات التي تزيد نسبة جاذبيتها على 25 درجة. والمهم في نسب الجاذبية هذه أنه كلما كان النفط الخام ذا درجة جاذبية أكبر، وبالتالي أخف كثافةً، كلما كان سعره أعلى، ذلك أن عملية تكريره تكون سهلة وأقل كلفة. وتعمل نسبة الكبريت في النفط بشكل مماثل لنسبة جاذبيته فزيادتها تجعل عمليات التكرير أصعب. أي أن أجود أنواع النفط وأعلاه ثمناً - مثل العربي الخفيف الممتاز - يتمتع بأعلى نسبة جاذبية وأقل قدر من المحتوى الكبريتي.

أسعار النفط

ومما يؤثر في تسعير خامات النفط المختلفة، أيضاً، أساليب نقلها، فهناك ما ينقل عبر الأنابيب، وما ينقل عبر الناقلات الصغيرة أو المتوسطة أو العملاقة. وهنالك بورصة يومية لأسعار النفط تتحرك هبوطاً أو صعوداً ضمن هامش معين وهي تتأثر بما تتأثر به أية سلعة أخرى، إلا أن أسعار النفط ظلت منخفضة جداً حتى عام 1973م، عندما قامت بعض الدول العربية المصدرة للنفط بقطع جزئي لكمية إمداد العالم الغربي بالنفط. وتحالف هذا القطع مع رغبة كانت تتعاظم في الدول النامية عامة منذ ما قبل 1973م في أن تستفيد بشكل أكثر عدلاً من مواردها الطبيعية، فارتفعت الأسعار بصورة كبيرة وأصبحت بعد ذلك منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) ذات فعالية في تقرير الأسعار بدلاً من الشركات، لأن عدداً من دول العالم الثالث المصدرة للنفط قامت بتأميم مرافقها النفطية وبالتالي استحوذت الحكومات، بدلاً من شركات التنقيب والإنتاج الغربية، القدرة على فرض الأسعار.

وبدلاً من أن يظل سعر برميل النفط الخام في المنطقة العربية مثلاً يساوي نحو دولار ونصف الدولار ارتفع إلى أكثر من عشرة دولارات ثم عاد وارتفع مرة أخرى في نهاية السبعينيات.

ولا بد من الأخذ في الاعتبار القدرة الشرائية للدولار قبل عام 1973م وبعده، والمقارنة بين الأسعار الفعلية (أي التي يمكن احتسابها على أساس ما يمكن أن تشتريه من سلع وخدمات) والأسعار الرسمية (أي مجرد السعر من دون تقدير قيمته الشرائية).

أي أن السعر الاسمي لبرميل النفط ارتفع بالفعل ارتفاعاً كبيراً، لكن الدخل الإضافي المجني من هذا الارتفاع لم يشكل زيادة في الثروة الحقيقية للدول التي جنت ثماره إلا بنسبة معينة، وذلك بسبب ظاهرة التضخم الاقتصادي الذي ينتج عنه ارتفاعٌ بأسعار السلع. وبالتالي فإن كل دولار إضافي في سعر البرميل ومداخيل الدول المصدرة، قضم منه الغلاء الحاصل جزءاً معيناً.

وتتبع دول أوبك حالياً سياسة المحافظة على أسعار النفط ضمن نطاق سعري يتراوح ما بين 22 و 28 دولاراً أميركياً للبرميل الواحد. وهي تزيد إنتاجها إذا تجاوزت هذه الأسعار 28 دولاراً للبرميل وتخفّض إنتاجها لزيادة الأسعار إذا ما انخفضت هذه الأخيرة إلى أقل من 22 دولاراً للبرميل، إلا أن هامش 6 دولارات بين سعر 22 و28 دولاراً يترك مجالاً واسعاً لبورصة النفط والمتعاملين فيها كي يحاولوا تحقيق أرباح إذا ما كانت تحليلاتهم الاقتصادية صحيحة.

عقود البيع الآجل والبيع الفوري

وتتم عمليات شراء وبيع النفط بواسطة طرق عديدة، فهناك عقود البيع والشراء بين حكومة وحكومة،

وعقود أخرى بين حكومة وشركة، وعقود ثالثة بين شركة وشركة، إلا أن المهم في هذه العمليات هو تحديد زمن التسليم، فالعقود التي يتم التوصل إليها بين طرفين، تحدد عادة زمن تسليم بعد أشهر من توقيع العقد ولمدد متفاوتة قد تصل إلى سنوات. وهذا الأمر يجري بين الحكومات كما يجري بين الشركات. وبمقدور الشركات شراء النفط الخام عندما تعتقد أن أسعاره رخيصة نسبياً وتخزنه لديها لحين ارتفاع هذه الأسعار لتجني أكبر قدر من



مجموعة من أنواع النفط السعودي تصنف من الثقيل يميناً إلى الأخف يساراً

الأرباح. وهنالك أيضاً الشركات التي تشتري النفط الخام وتقوم بتكريره وتبيعه مكرراً بأسعار أغلى بالطبع من سعر الخام، إلا أن طرفاً ما (دولة كانت أم شركة أم تاجر نفط)، يستطيع شراء هذه المادة مما يسمى «السوق الفورية»، أي أن الجهة التي تشتري من هذه السوق تتسلم النفط عبر صفقة تسلم فوراً أو خلال أيام ويكون سعر برميل النفط الخام في هذه الحال أعلى من أسعار التسليم غير الفوري. وأهم سوق فورية للنفط اليوم موجودة في ميناء روتردام الهولندي حيث ترسو العديد من ناقلات النفط الجاهزة لتسليم شحناتها للطرف الذي يشتريها.

ظل سعر النفط السعودي الخفيف الذي كان يسمى «العربي الخفيف» لمرحلة طويلة السعر الذي يعتبر «سعر القياس»، أي السعر الذي يتم بالمقارنة معه تحديد أسعار باقي خامات النفط الأخرى، وبعدما أصبحت منظمة (أوبك) فاعلة، قامت بتحديد سعر مؤلف من سلة من أسعار نفط الأعضاء المنتمين إليها وأصبح «سعر نفط أوبك» هو سعر القياس بالنسبة لأسعار دول أوبك. أما سعر نفط بحر الشمال فإنه يتحدد حسب معدل سعر نفط حقول بحر الشمال وأهمها حقل برنت البريطاني ويسمى «بسعر برنت». كذلك، فإن أسعار النفط الأميركي تحدد على أساس معدل سعر نفط حقول «غرب تكساس».

والواقع أن تغيرات عديدة حصلت في تطور أساليب إنتاج النفط؛ بسبب تطور تكنولوجيا استكشافه، والقدرة على حفر آبار أعمق بكثير من السابق. وكانت أهم حقول النفط هي حقول برية كحقول النفط المكتشفة في أوائل ومنتصف القرن العشرين، وقد تغير هذا الأمر بعض الشيء فأصبح لدى الشركات القدرة على الحفر في البحار والمحيطات واستطاعت اكتشاف حقول بحرية هامة كحقول بحر الشمال مثلا.

الغاز الطبيعي نوعان

الغاز الطبيعي يزداد أهمية مع الوقت خاصة مع ارتفاع وتيرة الوعي بأهمية استخدام طاقة بترولية لا تؤثر بشكل سلبي في البيئة. ويقسم الغاز الطبيعي إلى «غاز مرافق» و«غاز غير مرافق».

والغاز المرافق هو الذي ينتج من حقول النفط ويكون وجوده مترافقاً مع وجود النفط الخام. وقد ظل هذا النوع من الغاز المرافق يحرق في الهواء دون أن يُنتفع به حتى وقت قريب حينما بدأت الدول والشركات المنتجة للنفط تستثمره في مشاريع فصله عن النفط واستخدامه لأغراض إنتاج الطاقة مثله مثل النفط تماماً. أما الغاز غير المرافق فهو، كما تدل عليه تسميته، ينتج من حقول مستقلة غنية بالغاز أكثر من غناها بالنفط.

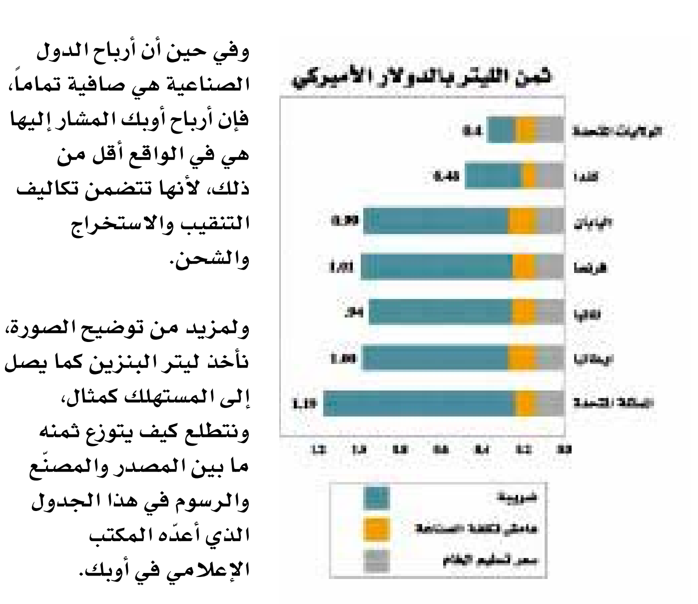
وتكمن سهولة استخدام الغاز الطبيعي في أنه يمكن نقله بسهولة عبر الأنابيب إلى المناطق الصناعية أو السكانية في البلد التي يكتشف فيها أو البلدان القريبة. أما الصعوبة التي يفرضها الغاز الطبيعي فهي في عمليات تصديره بواسطة الناقلات بصورة خاصة، إذ يتوجب عندها تسييل هذا الغاز بطرق فنية معقدة قبل تحميله على الناقلات. لذلك، فإننا نقرأ عن «الغاز الطبيعي المسال» و«الغاز الطبيعي غير المسال». ومن البديهي أن «الغاز المسال» هو أكثر كلفة وأعلى سعراً من «الغاز غير المسال».

أما البتروكيماويات فهي مواد مصنعة إما من النفط الخام أو من الغاز الطبيعي، وهي تحتاج لاستثمارات ضخمة لإنتاجها في معامل كبيرة، إلا أن القدرة على إنتاج أنواع كثيرة منها يزيد من أسعار هذه السلع البتروكيمائية المصنعة ويوفر للبلد الذي يقوم بهذه العملية نسبة مالية أعلى من مجرد بيعه للخامات غير المصنعة التي يجري تكريرها وتصنيعها في أوروبا أو في الولايات المتحدة الأمريكية.

النفط .. المصدّرون والمستوردون

يعتقد الكثيرون أن الدول المصدرة للنفط، وخاصة الدول الأعضاء في منظمة أوبك هي الرابح الأول من مبيعاتها النفطية، والواقع أن الأرباح الطائلة هي من نصيب الدول الصناعية المستوردة، وذلك من خلال ما تفرضه من ضرائب ورسوم على تجارة النفط واستهلاكه.

ولتأكيد الأمر بالأرقام، نشير إلى أن مجموعة الدول الصناعية السبع (الولايات المتحدة، كندا، اليابان، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، والمملكة المتحدة) جنت ما بين العامين 1996 و2000م ما مجموعه 1.3 تريليون دولار من خلال الضرائب والرسوم على النفط، في حين أن قيمة صادرات دول أوبك مجتمعة في الفترة نفسها كانت بحدود 850 بليون دولار.



وفي حين أن أرباح الدول الصناعية هي صافية تماماً، فإن أرباح أوبك المشار إليها هي في الواقع أقل من ذلك، لأنها تتضمن تكاليف التنقيب والاستخراج والشحن.

ولمزيد من توضيح الصورة، نأخذ ليتر البنزين كما يصل إلى المستهلك كمثال، ونتطلع كيف يتوزع ثمنه ما بين المصدر والمصنّع والرسوم في هذا الجدول الذي أعدّه المكتب الإعلامي في أوبك.

إقرأ للطاقة

كتاب احتفاء.. ولكن أوبك تستحق أكثر

لمناسبة مرور أكثر من أربعين سنة على تأسيس منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) تتداول محافل صناعة النفط كتاباً تذكارياً أصدرته المنظمة بعنوان «أوبك والألفية الجديدة»، احتوى على تقارير مختصرة للدول الإحدى عشرة الأعضاء في المنظمة وشركاتها الوطنية، بالإضافة إلى عدد من المقالات عن شؤون النفط والغاز المستقبلية. وفي مقال له في الكتاب بعنوان «القوة من خلال الصعوبة»، تناول أمين عام منظة أوبك السابق علي رودريغز، وضع هذه المنظمة وظروف نشأتها وما وصلت إليه حاليا وما تصبو لبلوغه مستقبلا.

وفي المداخلة التي كتبها معالي الأستاذ علي النعيمي، وزير البترول والثروة المعدنية، رئيس مجلس إدارة أرامكو السعودية، ركز على أن سياسة المملكة كانت تصبو دائماً إلى استقرار أسعار النفط بما يلائم المنتجين والمستهلكين على حد سواء، ولفت النظر إلى أن المرحلة الحالية هي مرحلة «تفاؤل حذر» لصناعة البترول حيث أن الارتفاع النسبي في أسعار النفط الخام شجع الشركات على التفكير إيجابياً في مشاريع جديدة أو مشاريع مؤجلة تبدأ بالتخطيط لمستقبل واعد أكثر من السابق.

من هذا المنطلق فإن شركة أرامكو السعودية بدأت بتحضير نفسها لظروف الأسواق المستقبلية. واستمرت في توسيع نظام إنتاج الغاز الطبيعي في المملكة كي تتمكن من تلبية الطلب المتزايد على الغاز وعلى لقيم البتروكيميائيات. وقد تضمن هذا التوسع زيادة في الاستكشاف والتنقيب عن الغاز غير المصاحب إلى أعماق لم تصل إليها من قبل وإلى إنشاء معامل معالجة الغاز ومد شبكات أنابيب لإيصال هذه المادة إلى محطات إنتاج الطاقة الكهربائية.

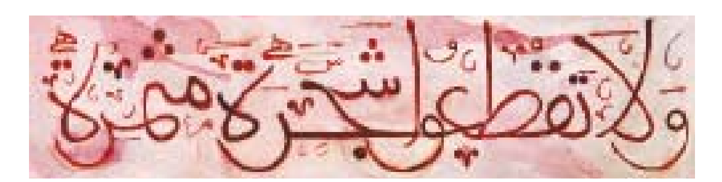
وقد تضمن الكتاب كلمات لجميع وزراء نفط دول أوبك حدد كل واحد منهم بصورة سريعة مشاريع بلاده في مجال النفط الخام والغاز في السنوات المقبلة وعلى المدى القصير والطويل. ولعل هذه هي نقطة الضعف في الكتاب، إذ أنه جاء ملخصاً لهذه المشاريع دون الدخول في تفاصيلها ولم يحدد، مثلا، ما ستكون عليه سياسة بلدان أوبك بالنسبة للتطورات الجارية حاليا لزيادة الإنتاج في مناطق أخرى كبحر قزوين وبعض مناطق الاتحاد السوفيتي السابق. من هنا فإن الكتاب جاء وصفياً أكثر منه تعليمياً في وقت قد تدخل فيه صناعة النفط، تصديراً واستيراداً، مرحلة جديدة في العقد الأول من الألفية الثالثة التي تشكل جزءاً من عنوان الكتاب.

ر.ح.

أمام أسئلة اليوم...

أخلاقيات الحرب في الفتح الإسلامي

فُجعت البشرية في العقدين الماضيين بسلسلة من الأحداث الدامية التي اتصفت بوحشية فقدت معها أهم مقاييس تعامل الخصم مع الخصم: الأقوى مع الأضعف والمنتصر مع المهزوم. وطغت عليها نفسية المنتقم المتشفّي الحاقد، وسمع العالم عن مجازر وجرائم لا مبرر لها في أدبيات المواجهة العسكرية المعهودة.



يكاد لا يمر يوم إلا ويشاهد الناس مناظر تقشعر لها النفوس من حروب ونزاعات مسلحة تُرتكب فيها تجاوزات لا توصف. وبالرغم من أن بعض الأطراف وُضعت في أقفاص اتهام عالمية وبعضها تُركت من دون إدانة أو عقاب، فالأهم هو أن هذه الأحداث تعكس فقدان الصلة بتقاليد وقيم كانت الإنسانية قد راكمتها عبر التاريخ. الزميل مأمون محي الدين من فريق التحرير، تناول في هذا الموضوع بعض أبرز أخلاقيات الحرب في الفتح الإسلامي.



أعطى الإسلام للفرسان العرب بُعداً إنسانياً شاملاً عزّز قيم المروءة والشهامة والعفو عند المقدرة وأعطى الرحمة معنىً إنسانياً واضحاً، حتى أنه لا يكاد يوجد حتى اليوم مجموعة من القيم وقواعد السلوك في التعامل مع الإنسان والطبيعة وحتى الحيوان في الحروب، أشد نبلاً وشهامة وإنسانية مما تركه قادة الفتح الإسلامي بدءاً برسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان هذا الموضوع يعدد ويعطي أمثلة عن تلك المبادئ والأسس فإن المتعمق فيه يرى كيف يصل إلى وصف حالات تفصيلية، تعكس حضوراً ذهنياً عميقاً، يفكر بكل احتمال ويخشى من أن يُشذ عن القاعدة في أي من الاحتمالات، فلا يكتفي الإسلام بعدم الإجهاز على الأسير فقط بل يأمر بإيواء الجريح وعلاجه، وغير ذلك الكثير مما يضمن تصرف المقاتل بالروح التي كان يرى فيها القادة السلوك القويم لحاملي الدعوة الجديدة.

للدفاع لا الاعتداء

إن المتأمل في تاريخ الحروب التي خاضها المسلمون في بداية الدعوة الإسلامية يلاحظ بسهولة أنها كانت قائمة على مبادئ أخلاقية بدلاً من الدوافع النفعية كما هو الحال في معظم الحروب الأخرى، فجميع المعارك التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم، لم تكن لأغراض الغزو البحتة وإنما كانت دفاعية، حاول فيها صد الاعتداءات التي كانت تستهدف المسلمين. وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم. ومن الأمثلة الواضحة التي يمكن أن نسوقها في هذا المجال أن الجيش الإسلامي في غزوة تبوك قد عاد أدراجه بعد أن تيقن من انصراف الروم عن القتال في تلك السنة.

ويلخص كاتب من غير دار الإسلام هو الفرنسي (مارسيل بوازار) في كتابه (إنسانية الإسلام) المفهوم الإسلامي للحرب بأنها «ليست ثأراً، بل جهد لدفع الجور والاضطهاد». ويضيف أنه «صادر عن مفهوم أسمى للإنسان بوصفه إنساناً، وعن الاحترام الواجب له بوصفه مخلوقاً من مخلوقات الله».

«وقاتِلوا في سبيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقاتِلونَكُمْ، ولا تَعْتَدوا، إنّ اللّهَ لا يُحِبّ المُعتدينَ»

(البقرة 190)

ويكمن الدليل الساطع على أن الإسلام لا يتطلع إلى الحرب إلا من زاوية دفاعية غير نفعية في الآية الكريمة: «وقاتِلوا في سبيلِ اللّهِ الّذينَ يقاتِلونَكُمْ ولا تَعْتَدوا إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ المُعتدينَ». (البقرة 190).

من هنا، فإن الهدف الوحيد المسموح به للقتال هو الدفاع عن العقيدة أو النفس أو عن الملك المشروع. أي أنها في جميع الحالات حربٌ دفاعية، وفي غير هذه الحالات فإن الحياة الإنسانية لها حرمتها ولا يجوز المساس بها.

في سير المعارك

في الإسلام الحرب لا تضع الشعوب في مواجهة بعضها، بل تكتفي بوضع حماة الدين في مواجهة المعتدي. وعليه، تصبح الحروب حينئذ محدودة الأهداف والمدى. الأهداف هم المقاتلون، والمدى ساحة المعركة. وهكذا فإن زمن الحرب يصبح محدوداً، وبالتالي لا يبقى أي مجال يمكن للغالب أن يؤجج فيه حقده أو ليمارس أي شكل من أشكال الاعتداء على المغلوب.

ومن خلال مصادر أصيلة متعددة نجد أن الإسلام بَسَط المبادئ الخاصة بسير القتال باعتبارها من قواعد الحرب عند المسلمين، ومن هذه القواعد ما يلي:

- ينبغي أن يسبق القتال دائماً إعلان أو تحذير – كان غالباً الدعوة إلى الإسلام – كي لا يؤخذ العدو على غرة.
- التمييز بين المقاتلين – وهم يحملون في الجيوش الإسلامية شارات مميّزة – وبين المدنيين غير المشتركين بصورة مباشرة في القتال.
- منع إنزال الأضرار الزائدة عند الحاجة بالعدو، كالقتل والقسوة والتعذيب المهين.
- حظر أعمال التدمير غير المفيدة ولا سيما إتلاف المزروعات.
- احترام المنسحبين من الالتحام، كالجرحى والجنود المتمتعين بأمان موسع -الحماية- وأسرى الحرب.
- إدانة الأسلحة السّامّة.
- السماح لرعايا الدول المعادية الذين يكونون على أرض الإسلام بالبقاء بصورة طبيعية شرط أن لا يقوموا بأعمال معادية للإسلام.
- حماية السكان المدنيين واحترام أديانهم ورؤساء هذه الأديان، وعدم شرعية قتل الرهائن واغتصاب النساء.
- تأكيد المسؤولية الفردية وإلغاء كل عقوبة تصدر بحق أشخاص عن جرائم لم يرتكبوها بأنفسهم.
- عدم شرعية مقابلة الأذى بالأذى أو اتخاذ تدابير قد تكون مخالفة للمبادئ الإنسانية.
- التعاون مع العدو في الأعمال الإنسانية.
- منع كل عمل مخالف لأحكام المعاهدات التي يعقدها المسلمون منعاً باتاً.

إن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها على مدى تحكم هذه القواعد بسلوك المسلمين في حروبهم أكثر من أن تحصى. ولعلنا نكتفي هنا بالإشارة إلى واحد منها وهو أنه في زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعاً ولا عاطفة، أصدر الخليفة أبو بكر الصدّيق، رضي الله عنه، إلى جنوده التعليمات المشهورة المرددة كثيراً لأنها تختصر الروح الخلقية للقانون الإسلامي، فأوصى قائد الجيوش المتجهة إلى الشام أسامة إبن زيد قائلاً: «لا تخونوا ولا تغلوا ولاتغدروا ولا تمثلوا ولاتقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تقطعوا شجرة مثمرة». وهذه الأوامر الصادرة عن الصديق رضي الله عنه، لا تشكل فقط وصايا دينية، بل موجبات قانونية صارمة تلحق بمسؤولية المحارب الشخصية. كما أننا نلحظ من خلال القراءة المتأنية لهذه الأوامر أن تعيين الشجرة المثمرة بدل الاكتفاء بالشجرة يعكس جانباً جوهرياً في العقيدة الإسلامية، ألا وهو الحرص على الأشياء، ليس من باب المبدأ الإنساني المجرد فقط وإنما بالدرجة الأولى من باب المصلحة العامة. وبذلك يصبح التقيد بالمصلحة العامة منطلقاً أساسياً لصياغة المبدأ. إنها المثالية التي تعبّر عن مبادئها وعينها على الواقع الحي وحاجات الإنسان كإنسان، فالشجرة جميلة، لكن الشجرة المثمرة هي الأجدر بالمحافظة عليها.

فالعنف لا يدان بالمطلق. والمنهج الإنساني الذي يدين العنف كعنف يغفل واقعية الحياة في جوانب لا عد لها ولا حصر، لكن الإسلام يدين المبالغة في العنف، حيث لا حاجة له ولا مصلحة من ورائه، فممارسة العنف ضد أسير ضعيف أو إنسان مستسلم يناقض مبدأين: مبدأ الرحمة، أي المبدأ الإنساني العام، ومبدأ الضرورة أو المصلحة. كذلك قطع الشجرة والشجرة المثمرة بنوع خاص. والحرص على الشجرة المثمرة يشبه الحرص على المرأة الحبلى، لأن الإنجاب من أصول الحياة والبناء.

إلا أن القانون الإسلامي في المعاملة له أبعاد أخرى تتجاوز ذلك وتتمثل في انعكاس الفعل على الفاعل. ومما لا شك فيه أن الإسلام منذ نشأته كره التشفي والانتقام وتأجيج الأحقاد في النفوس، وذلك أيضاً من حيث المبدأ الإنساني العام، ومن باب الحرص على حماية نفوس المسلمين – مقاتلين وغير مقاتلين – من أن تصاب نفوسهم بأمراض يكون لها أسوأ الأثر على إيمانهم نفسه وعلى نظرتهم إلى مبادئ الدين، وحتى على علاقاتهم بمحيطهم وذويهم.

كان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يوجه جنوده قائلاً: «إذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تضربوا النساء، واذكروا الله لعلكم ترحمون». وهنا نصل إلى النقطة الثالثة من هذا الموضوع ألا وهي مسألة التعامل مع نتائج المعارك وما تخلفه من أسئلة على صعيد حقوق الأسرى وحقوق الإنسان بشكل عام.

المغلوب..يبقى إنساناً

«استوصوا بالأسارى خيراً..» هكذا كان يقول الرسول صلى الله عليه وسلم. ولإدراك الأبعاد الإنسانية العميقة لهذا القول يجب أن نتذكر أنه قبل الإسلام وفي أي مكان في العالم تقريباً، كان التعامل مع الأسير يتم حسب أهميته ومركزه، فقد كان الأسير جزءاً من الغنيمة، بل ومادتها الأساسية أحياناً، وتظهر لنا كتب التاريخ أن الأسير كان سلعة يملكها الآسر. إن شاء استحياه، وإن شاء قتله.

الأسرى.. مقابل صناعة الورق

بعد استيلاء المسلمين على تركستان ودخولهم مدينة سمرقند الواقعة على طريق تجارة الحرير، خاف الصينيون من هذا التقدم فجهزوا جيوشهم لوقف المد الإسلامي، فتصدى لهم القائد الإسلامي (زياد بن صالح) واستطاع دحرهم وأسر عدداً كبيراً منهم.. وكعادة المسلمين في إيجاد طرق لإطلاق سراح الأسرى طلب من الأسرى الذين يجيدون صناعة الورق افتداء أنفسهم مقابل تعليم أسرار هذه الصناعة للمسلمين، بعد أن احتفظ بها الصينيون لأكثر من سبعمائة عام.. بهذا التعامل الراقي انتشرت صناعة الورق في العالم الإسلامي ومن ثمّ انتقلت إلى أوروبا بفضل عرب الأندلس.

لم يأت هذا التعامل المفيد للإنسانية إلا من تراكم نظم متطورة في التعامل مع الأسرى، وما من شك في أن إطلاق الرسول صلى الله عليه وسلم لأسرى قريش في معركة بدر مقابل تعليم صبيان المسلمين القراءة والكتابة كان مرجعاً مهماً لقادة المسلمين في فتوحاتهم في مشارق الأرض ومغاربها.



بظهور الإسلام، لم يفقد الأسير قيمته لأغراض عدة مثل مبادلته بأسير أو لاستيفاء فدية أو ما شابه ذلك. وصارت الشروط والترتيبات الخاصة بعودة الأسرى تنظم في معاهدات تعرف بالفداء. وقد جعلت كثرة الحروب بين الإسلام والعالم الخارجي هذا الإجراء من باب المتعارف عليه. ولم تكن مساهمة هذه المعاهدات في إنقاذ حياة الألوف من البشر وتأمين الحماية لجنود الأعداء الذين دارت عليهم الدوائر بالقليلة. وأتاحت لأوروبا في القرون الوسطى أن تعي وضع الأسرى المسيحيين في الشرق، وتدرك أنه بات ممكناً شراء حريتهم.

وعن معاملة الأسير الذي يقع في أيدي المسلمين، يكفي أن نشير إلى أن القرآن الكريم جعل إحسان المسلم إلى الأسرى من أعمال البر والتقوى، ومن ذلك قوله تعالى «وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً» (الإنسان 8) ومن الحقوق التي قررها الإسلام حق الأسير في ممارسة شعائر دينه، وحقه في كسوة لائقة تقيه حر الصيف وبرد الشتاء. وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم، كسا بعض الأسرى من ملابسه. ورأفة بضعف المغلوب يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما رأى الأسرى من يهود بني قريظة واقفين في العراء في ظهيرة يوم قائظ، قال لحراسهم من المسلمين: «لا تجمعوا عليهم حر هذا اليوم وحر السلاح، قيلوهم حتى يبردوا».

والواقع أن سماحة الإسلام في التعامل مع المغلوب والأسير كانت على مستوى عالٍ من الإنسانية والنبل، مما جعل بعض القادة من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم يواجهون صعوبة في تقبّلها. فبعد غزوة بدر مثلاً وقف في وجه المطالبين بمعاملة رحيمة لإعلاء شأن الإسلام والتعجيل بانتشاره، فريق يطالب باسم العدل بقتل الأعداء الذين آذوا الجماعة الإسلامية الناشئة، غير أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قرر تحرير الأسرى بفدية، والاحتفاظ بمن لا يقدرون على تحرير أنفسهم. وحرر هؤلاء لاحقاً بعد قيام كل واحد منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة. فالقرآن الكريم كما هو معروف يقرر تدبيراً من اثنين: الفدية أو التحرير، وتؤكد السيرة النبوية الشريفة أنه لا الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا خلفاؤه من بعده سمحوا بقتل الأسرى.

بحد السيف أم بغيره؟

الكاتب المصري الدكتور نبيل لوقا بباوي، الذي راعته الحملة التي استهدفت الإسلام في الآونة الأخيرة، وضع كتاباً جديداً يرد فيه على جملة افتراءات يروجها بعض المستشرقين حول سبل انتشار الدعوة.

ويؤكد الدكتور بباوي في كتابه (انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء) والذي يقع في 192 صفحة، أن جميع الحروب التي قام بها المسلمون كانت دفاعية، حتى أنه يسمي هذه الحروب وقائع ويرفض تسميتها غزوات.

ويؤكد المؤلف أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف، ولم يُجبر الناس على اعتناقه بالقوة. ومن خلال حديثه عن المعارك التي خاضها المسلمون باسم الإسلام، يبين لنا كيف أن أخلاق المحاربين ساهمت إلى حد كبير في انتشار دينهم.

وفي الأبواب الخمسة التي يتألف منها الكتاب، وفي كل واحد منها عدة فصول، يستعرض الكاتب الفتوحات الإسلامية، منذ بدء الدعوة وحتى فتوحات العراق وبلاد فارس والشام ومصر وشمال إفريقيا، مفرداً حيزاً واسعاً لأخلاق المحاربين، وللمعاملة الإنسانية التي لقيها المغلوب أمامهم، وهامش الحرية الكبير الذي ترك له في اعتناق الإسلام أو البقاء على دينه، وهو أمر لم تشهد له الحضارات الأخرى مثيلاً.

«... ولا تعقروا نخلاً ولا تقطعوا شجرة مثمرة إلا لمأكلة»

وأكثر من ذلك، فإن تحرير الأسرى غير المشروط من باب السخاء ليس نادراً في التاريخ الإسلامي. ومن أشهر أمثلته نذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم حرر تحريراً غير مشروط جميع الأسرى في فتح مكة، وصلاح الدين الأيوبي أطلق المسيحيين الذين لم يكونوا يملكون الفدية عند تحرير القدس من جيوش الفرنجة.

باختصار، يمكن القول أن للإسلام مفهوماً للحرب، وقواعدَ لخوضها وأسساً لتعامل الغالب مع المغلوب قابلة للتطبيق، وقد طبقت بالفعل، وارتقت بنظرة الإنسان إلى أخيه الإنسان واحترام حقوقه إلى مستويات لا تزال حتى اليوم قبلة طموحات المهتمين بحقوق الإنسان في الحروب. وفي هذا المجال ننقل من بوازار مرة أخرى قوله: «يمكن للإسلام أن يفاخر بأنه لم يعرف قط الإبادة الجماعية ولا معسكرات الاعتقال. وما يزال يملك في الوقت الحاضر اعتدالاً وحكمة يمكن للإنسانية (إنسانية اليوم) أن تستفيد منها».

رسوم: عمر صبير

إقرأ في الفكر



حوار الحضارات.. تفاعل الغرب الكوني مع الشرق المتفرّد

تأليف: السيد ياسين

يطرح هذا الكتاب موضوعاً ملأ الدنيا وشغل الناس وألقى بظلاله على كثير من مداولات اليوم.

يتناول الكاتب بعض نماذج الحوار الحضاري بين الأمم تاريخياً في فترات الحرب والسلم على السواء. ومن القضايا الرئيسة التي تناولها، الحوار الفلسطيني الإسرائيلي باعتباره حالة نموذجية لحوار حضارات..

وفي رأي الكاتب أن الحوار بينهما اتسم بأنه خليط من العنف والأفكار والطروحات التي تناقشها كافة الفصائل الفاعلة في فلسطين.

كما قام بتقديم وجهة نظر المفكر الفلسطيني البارز عزمي بشارة ورؤيته حول «دولة المواطنين» والانتقادات التي تعرض إليها.

وتحت عنوان «بين المركزية الغربية والخصوصية الثقافية» تحدّث السيد ياسين عن الأخلاق بين النص والممارسة والمركزية الغربية وتجلياتها المعاصرة والعقل الأخلاقي العربي وإشكالية النهضة في الفكر العربي ونقده الذاتي، وخصوصيته الثقافية.

وأفرد قسماً يضم أحد عشر مقالاً حول ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، تناول فيها مشكلة التدهور النسبي للقوى العظمى والحداثة العالمية وأزمتها الثقافية التي تفجرّت بعد الأحداث.

كما تحدّث عن الأزمة الثقافية العربية وأزمة الهوية وصوت العقلانية الأمريكية الذي وقف على الجانب الآخر لخطاب الحرب العالمية الثالثة. وعبّر عن وجود حالة من التدهور السياسي النسبي في القوى العظمى وصعود بعضها وسقوطه.

قول في مقال

قراءة في «تاريخ القراءة»

كتاب يرد الاعتبار إلى الكتب..

عندما ينتهي المرء من قراءة كتاب «تاريخ القراءة» يشعر برغبة في أن يقوم إلى مكتبته الخاصة، صغيرة كانت أم كبيرة، فيتطلع إليها وكأنه يراها للمرة الأولى. تتملكه الغبطة، لأنه يمتلك هذا الكنز الثمين، وقد يلوم نفسه لأنه تعامل مع هذه الكتب وكأنها جزء من ديكور المنزل.

هذا الكتاب، تاريخ القراءة، يرد الاعتبار والبريق إلى المكتبة بأسرها، لأنه يهزّ بعنف علاقتنا بالكتاب، وبشكل دعوة لا تقاوم إلى إعادة تقويم هذه العلاقة التي نسميها «القراءة».

مؤلف الكتاب هو الأرجنتيني ألبرتو مانغويل. وهو شخص شغوف بالقراءة، وقد احترفها لبعض الوقت، إذ عمل قارئاً عند الأديب خورخيه لويس بورغيس، لأن هذا الأخير كان ضريراً كما هو معروف. وبعدما أمضى عمره وهو يقرأ ويجوب العالم بحثاً عن كل شاردة وواردة تتعلق بالقراءة والكتابة، كان مؤلفه الفريد من نوعه.

عندما بدأنا بقراءة هذا الكتاب – تاريخ القراءة – كانت عندنا مجموعة أسئلة، بعضها حظي بأجوبة، وبعضها كان خارجاً عن مضمون الكتاب. ولكنها تساقطت جميعها أمام سؤال جديد لم يكن ليخطر على بالنا. وقبل طرح السؤال، نتوقف أمام الدافع إليه، أي مضمون الكتاب.

القراءة بصمت، القراءة على الآخرين، شكل الكتاب، القراءة الوجدانيّة، قراءة المستقبل، القارئ الرمزي، سرقة الكتب، الكاتب كقارئ، المترجم كقارئ، الولع بالكتب. هذه بعض عناوين العشرين فصلاً التي يتألّف منها هذا الكتاب.

وعلى العكس مما يرد في ذهن القارئ من أن كتاب مانغويل هو غوصٌ في تاريخ الكتابة والكتب، كما يبدو من بعض هذه العناوين، نشير إلى أنه لم يتطرّق إلى الكتابة وأشكالها إلا من زاوية تأثيرها في القراءة، فنجده لا يتطرّق مثلاً إلى الحديث عن أدوات الكتابة، ولكنه يفرد عدة صفحات للنظارات الضروريّة للقراءة، بدءاً من ظهورها الأول الذي وصل إلينا في لوحة إيطاليّة تعود إلى القرن الرابع عشر وصولا إلى تبجّح الباحثين عن مظهر أكثر أهميّة في العصر الحديث... إذن كل شيء عن القراءة... والقراءة فقط.

ليست بهذه البساطة

من أبرز ما يتضمّنه الكتاب بحث في عنصري القراءة: بصوت عالٍ أولاً ومن ثم بصمت. فالعنصر الأول امتدّ منذ عصر ألواح الصلصال وحتى العصور الوسطى، والعصر الثاني ابتدأ في القرن السابع الميلادي تقريباً، ولم يستقر إلا قبل خمسة قرون فقط، فتطوّرت أشكال الكتابة وظهرت النقاط والفواصل التي تُسهّل عمليّة التوقف على الزمن، بعد أن كان يُعتمد في ذلك على موهبة القارئ –الخطيب–، فصارت «للأحرف قوّة إيصال أقوال الغائبين إلينا بصمت» على حد تعبير إيزيدور الإشبيلي.

ولكن ما تضمّنه كتاب مانغويل يتجاوز في نظرنا هذا التأريخ للمعطيات وتسجيلها المباشر، فما بين الأسطر وعلى مدى صفحات الكتاب بأكمله يكشف عن أن «النخبة المثقفة» التي تستحق فعلاً هذا الاسم أولت القراءة أهميّة تفوق إلى حدّ بعيد ما يمكن أن يكون منطبعاً سلفاً في الأذهان.

فمن الزخارف الجميلة الواردة في الكتاب حديث عن العلاقة بين شخصيّة القارئ والكتاب الذي يحمله، فالكتاب يحدّد هويّة القارئ ويعرّف عن شخصيّته، خاصّة خلال أسفاره. ويضرب المؤلف مثالاً على ذلك إحدى قريباته التي يقول عنها: إنها كانت تعرف تمام المعرفة دورَ الكتاب في التعرّف إلى الآخرين والتواصل معهم، فكانت تختار عند السفر مواد القراءة بعناية فائقة.. فلم تكن تأخذ معها كتاباً لرومان رولان تحاشياً للتبجح، وكانت أغاثا كريستي تبدو لها بسيطة وعاديّة جدّاً. وهكذا فإن ألبير كامو كان ملائماً للرحلات القصيرة، وكرونين للرحلات الطويلة، أما الروايات البوليسيّة فكانت تعتبر الكتب الملائمة للقراءة خلال عطل نهاية الأسبوع في الريف. وكانت كتب غراهام غرين ملائمة خلال رحلة في الباخرة أو في الطائرة..

ومن الزخارف التي يتوسّع فيها المؤلّف نذكر أيضاً الأماكن المفضّلة للقراءة، فيذكر أن عمر الخيّام كان يوحي بقراءة الأشعار بالخارج تحت الأغصان. وبعده بعدة قرون، نصح الكاتب الفرنسي سانت بوف بقراءة مذكّرات مدام دي ستايل «تحت أشجار نوفمبر». وفي نهاية حياته كتب آلان بروست على نور مصباح خافت: «إن الكتب الحقيقيّة يجب ألاّ تولد من ضوء النهار الساطع ومن الدردشة في الحديث، وإنما في الظلمة والسكون».

ويدرس الكاتب بعمق مسألة القراءة في الفراش فيقول إنها أكثر من مجرّد تمضية للوقت، إنها تمثل نوعاً من الوحدة. فالمرء يتراجع مركّزاً على ذاته، ويترك الجسد يرتاح.. وهنا يستعرض المؤلف أشكال الأسرّة في التاريخ، وما إذا كان هذا الطراز أو ذاك يساعد على القراءة أم لا، ولمعرفة ما إذا كانت القراءة في غرفة النوم معروفة في هذه الحضارة أو تلك. ويتوقّف بإسهاب أمام حالتي الكاتبتين، الأمريكيّة إديت وارتون، والفرنسيّة كوليت، اللتين اشتهرتا بالعزلة في غرفة النوم للقراءة والكتابة.

القارئ السيد

في إهدائه الكتاب إلى القارئ، استخدم مانغويل سؤالاً كان قد طرحه الفيلسوف الفرنسي ديدرو: لكن من سيكون السيّد؟ الكاتب أم القارئ؟ وعلى مدى صفحات هذا الكتاب، يؤكد المؤلف أن القارئ هو السيّد، وأنه هو الذي فرض تطوّر الكتاب وأشكاله عبر التاريخ، بدءاً بالانتقال من اللفافة، إلى الكتاب المجلّد وصولاً إلى كتاب الجيب الذي ظهر في العصر الفيكتوري، وانتشر بشكل ساحق في العصر الحديث. ويجزم أن فعل القراءة هو الذي أسقط بعض أشكال الكتب مثل الكتب الكبيرة التي عادت إلى الظهور في القرن التاسع عشر لبعض الوقت، ولكن صعوبة التعامل معها أدت بها إلى الانقراض.

وفي هذا السياق التاريخي نكشف بعض الأجوبة لعدد من الأسئلة التي طرحت في السنوات الأخيرة، حول مصير الكتاب في عصر الحاسوب على سبيل المثال.

ففي تعليق على اختراع الطباعة على يد يوهان غوتنبرغ يقول مانغويل: «إن فن الخط الجميل تطوّر في القرن السادس عشر وترك بصماته على ثقافة ذلك القرن بكامله.»

ويضيف: «من الشيّق أن نرى كيف أن بعض التطورات التكنولوجية– مثل اختراع غوتنبرغ – تشجّع في الواقع ذلك الشيء الذي جاءت لإزاحته عن الطريق، منبهة إيّانا بضرورة المحافظة على القيم القديمة والتقاليد...

ففي يومنا هذا مثلا نرى أن تقنية الحاسوب وطباعة الكتب على أقراص مبرمجة لم تؤثر – كما تُظهر الإحصائيّات – في إنتاج وبيع الكتب. وبعد أن يشير إلى أن عدد الكتب المطبوعة التي دخلت مكتبة الكونغرس الأمريكي سنة 1995م. بلغ 359437 كتاباً، يفاجئنا في اتخاذ موقف متحرر جداً بالنسبة للقارئ الكلاسيكي الشغوف بالورق وملمسه ورائحته فيقول: «إن من يرى في الحاسوب عملاً ضد الكتاب، فإنه يبجّل الحنين إلى الماضي على حساب التطور والتجارب والخبرات.»

وبثقة لا تتزعزع بالكتاب المطبوع على الورق، يقول في مكان آخر: «إن القراءة على شاشة الحاسوب تمثل عودة إلى أسلوب قراءة اللفائف القديمة، التي كانت قد انهارت أمام ظهور الكتاب الذي يتضمن صفحات متتالية.»

الشغف .. سيد الأعمال

في القرن الأول الميلادي أبدى الشاعر ماريتال دهشته من السلطان السحري لذلك الشيء الصغير الملازم لليد والذي كان يحتوي على أشياء نفيسة لا تقدّر بثمن:
هوميروس على صفحات الرق
الإلياذة ومغامرات أوليس عدو مملكة بريام
كلها مغلقة ضمن قطعة من الجلد
مطويّة إلى صفحات صغيرة عديدة!
بعد ذلك بعشرين قرناً كان الشغف نفسه في نفس ألبرتو مانغويل، وعبّر عنه في بداية مدهشة لكتابه. إذ استهلّه بثماني عشرة صورة من مختلف الحضارات والثقافات لأناس يقرؤون. وبعد تعليقات مقتضبة على هذه الصور كتب: «كل هؤلاء قرّاء. كل إيماءاتهم وقدراتهم ومسرّاتهم ومسؤوليّاتهم، والطاقات التي تقدّمها لهم القراءة معروفة لدي تماماً. إذن أنا لست وحيداً».

فماذا عنّا..؟

إن كنّا غصنا في بعض التفاصيل التي انتقيناها عشوائياً من هذا الكتاب، فالأمر عائد إلى إيضاح المزاج العام الذي يسيطر على القارئ العربي عند مطالعته. والوصول إلى السؤال المستجد الذي أشرنا إليه في البداية، ونطرحه هنا: ماذا عنّا في البلاد العربيّة؟ هل تعاملنا فعلاً مع فعل القراءة على هذا المستوى من الأهمية؟

الكثيرون منا يتحدثون عن تدهور حركة النشر وحركة التأليف. ولكن لا أحد يلوم القارئ. فعندما ينصرف الملايين عن الكتاب إلى شاشة التلفزيون مثلاً، ألا يجدر بنا أن نراجع مفهومنا للقراءة ودورها في حياتنا، ونظرتنا إلى القراءة على المستوى الموازي لأهميتها في صيانة شخصيتنا وأفكارنا ونظرتنا إلى العالم؟

في هذا الكتاب جواب واضح وإن كان غير مباشر، فعندما تتدنّى القراءة وتنهار، فهذا يعود إلى أنها لم تكن أصلاً على مستوى عالٍ من الوعي لأهميتها، فللقراءة مفهوم يتجاوز ما نتعلمه في المدرسة.. إنها مسألة رغبة وإصرار على التواصل مع ما دار في رؤوس أناس آخرين يعرفون ما لا نعرفه.

عبود عطية

«تاريخ القراءة»، ألبرتو مانغويل، «دار الساقي» بيروت ولندن، 384 صفحة. صدر عام 1991م، وترجمة سامي شمعون

لم تعد البيئة موضوعاً خارجياً مجرداً. لقد وحّد الوعي البيئي بين حياة الفرد داخل منزله وخارجه وباتت الأعين مفتوحة على أهمية النظافة والمياه والحياة الصحية والنفايات وغيرها، بدءاً بغرفة النوم وحتى ساحات النزهة، وغدا الوعي البيئي عادات مكتسبة وتصرفات تلقائية. الدكتور نزار دندش*، يثبت بالبرهان أن هناك «جديداً تحت الشمس»..

عاداتنا البيئية

تتبدل مع كل صباح

في حياة كل منا مجموعة عادات يومية وأوجه سلوك تتعلق بالبيئة المحيطة به، وتكشف عن حقيقة تعاطيه الشأن البيئي. قد لا تبدو هذه العادات مختلفة اليوم عما كانت عليه قبل أسابيع أو أشهر قليلة، ولكنها تختلف كثيراً عما كانت قبل عشر سنوات . لقد تغيرت حتماً ...

وتؤكد معظم الدراسات الحديثة أن سلوك الإنسان في حياته اليومية على صعيد علاقته مع البيئة تحسن بنسبة كبيرة عما كان عليه حتى الثمانينيات الميلادية من القرن الماضي، وهذا التحسن تحقق نتيجة حملات التوعية والضغوط التي اتخذت أشكالاً

* رئيس رابطة الأساتذة الجامعيين لحماية البيئة في لبنان

مختلفة واعتمدت أساليب متعددة ترغيباً حيناً وترهيباً أحياناً. وقبل الغوص في تفصيل هذا التغير، لا بد من التوقف أمام "الترهيب"، أي الأرض التي قامت عليها حملات التوعية واستدعت منا تغيير سلوكنا وعاداتنا اليومية.

أرقام خارج العادة

خلال مائة عام فقط (بين عامي 1890 و1990 م تحديداً) سُجلت أرقام لم يعتَدْها الإنسان، فقد زاد عدد سكان العالم أربعة أضعاف وزاد عدد سكان المدن ثلاثة عشر ضعفاً، وزاد اقتصاد العالم أربع عشرة مرة، وإنتاجه الصناعي أربعين مرة، واستعماله للطاقة ثلاث عشرة مرة، وزاد تلوث الهواء خمس مرات وأكسيد الكربون سبعة عشر ضعفاً، والرصاص ثماني مرات، وزاد استهلاك



المياه تسع مرات، ووتيرة صيد السمك خمساً وثلاثين مرة، وزادت مساحة الأراضي المزروعة مرتين، وبالمقابل انخفض عدد الطيور واحداً في المائة، كذلك انخفضت مساحة الغابات بوتيرة تسارعت عشرين مرة.

وراح المناخ، الذي شهد تبدلاً خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة، يشهد تغيراً سريعاً نتيجة انبعاث الغازات في الغلاف الجوي المحيط بالأرض. وقدّرت منظمة الصحة العالمية سنة 1998م أن أكثر من مليار إنسان (من أصل 1.8 مليار) من سكان المدن في العالم، يتنفسون هواءً لا يتمتع بالمواصفات الصحية من حيث احتواؤه نسبة عالية من ثاني أكسيد الكبريت ومن الدخان والغبار.

تربة الأرض -بدورها- تتعرض للانجراف بسرعة كبيرة، إذ تعرّى حتى الآن ثلث اليابسة على سطح الأرض. وتُقدّر منظمة الغذاء والزراعة العالمية "الفاو" التابعة للأمم المتحدة أن ما يُدمر من الأرض الزراعية بسبب عوامل التعرية يتراوح ما بين 0.3 و0.5 ٪ كل سنة.

الإعلام والتكرار المفيد

أمام هذه المعطيات المثيرة للقلق راحت الجمعيات البيئية تتألف أينما كان، وتوجّه ضغطها في كل اتجاه. بعض هذا الضغط وُجّهَ إلى الحكومات التي راحت تسن القوانين اللازمة لحماية البيئة ووقف تدهورها، ومنها أيضاً ما كان موجهاً إلى كل فرد في منزله وفي حياته اليومية، بما يمثل دعوة إلى تغيير سلوكه البيئي نحو الأفضل.



الإعلام كان من أمضى الأسلحة في معركة تغيير عاداتنا اليومية مع البيئة، فقد عملت وسائل الإعلام في المجال البيئي على مجموعة خطوط متوازية نذكر منها:

- إظهار العالم وكأنه في الواقع قرية صغيرة يمكن لأي حدث بيئي في طرفها أن يؤثر فيها كلها، وتوضيح مدى تأثير الأحداث البيئية مهما كان بعدها عنا.

- تعميم التجارب الناجحة في الدول المتقدمة واعتبار الإطناب في تقديمها مثلاً يُحتذى، وشرح النتائج الإيجابية التي أوجدها الاهتمام بالبيئة في هذه التجارب.

- التكرار والإلحاح على وجوب فعل كذا وعدم فعل كذا... لأن التكرار ينعكس على من يصعب تعليمهم. غير أن أنجح مافعله الإعلام - ومن خلفه دعاة حماية البيئة - كان ربط تعاملنا اليومي مع البيئة بمفهوم الأخلاق الحميدة، وهنا راحت عاداتنا البيئية تتغير يوماً بعد يوم.

> المثقف المُتَنَوِّر الذي يجد حرجاً كبيراً في إلقاء ورقة صغيرة على رصيف الشارع .. تجاوز الحرج في إلقاء قشور البرتقال في بستان!.

سلوك جديد وجيِّد

لو احتسب أي منا عدد أفعاله اليومية التي عدّلها بنفسه (ولو مكرهاً) تماشياً مع مقتضيات احترام البيئة لوجد أنها عديدة، وأكثر بكثير مما كان يظن. فهذا سائق سيارة ينبعث منها دخان أسود كثيف لعطل ما، يقول إنه لا يستطيع أن يجول بها، ويضحك محرجاً وهو يفسّر: "لأن الناس ستشتمني"..!

وفي المدن بدأ رمي القاذورات على الطرقات بالانحسار النسبي. والذين لا يزالون يمارسون هذه العادة السيئة صاروا يلتفتون يميناً وشمالاً للتيقن من أن أحداً لا يراقبهم، إما خجلاً وإما خشية سماع كلمة تأنيب ستكون- ولا شك- صحيحة وفي محلها.

كُثُرٌ منا صاروا يضعون أكياساً صغيرة في سياراتهم لجمع النفايات الصغيرة، ويتخلصون منها لاحقاً في المكان المناسب.

تجارب فرز النفايات المنزلية، التي بدأت قبل أكثر من عقد في أميركا والبلاد الاسكندنافية، انتشرت بسرعة في العديد من الدول النامية وقد تعمّ العالم بأسره قريباً. حتى في الدول النامية تجاوبت ربات البيوت مع القضية على نحو فاق التوقع الأوليّ .

والأشجار ... صحيح أننا في البلاد العربية نحبها منذ زمن بعيد، نحافظ على القليل منها ونسعى إلى إكثاره. ولكن سلوكنا اليومي صار أكثر حساسية تجاه ما نراه منها في شوارعنا وحدائق منازلنا. نسعى جاهدين للمحافظة عليها، ونعدّ إظهار علامات التأثر لقطعها واجباً أخلاقياً.

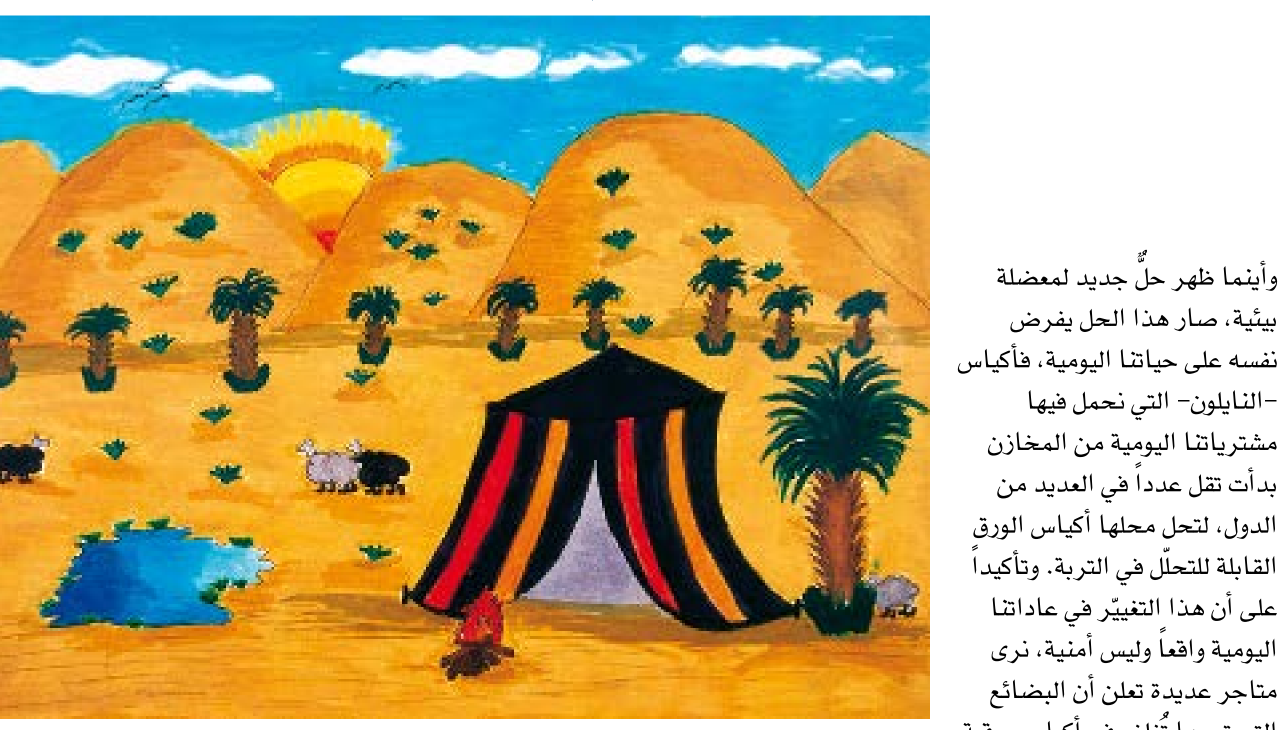
يخطئ من يعتقد أن عاداتنا الجديدة هذه شكلية فقط، أو معلبة من دون وعي، فالمثقف المُتَنَوِّر يجد حرجاً كبيراً في إلقاء ورقة صغيرة على رصيف شارع لكنه تجاوز الحرج في إلقاء قشور البرتقال مثلاً في بستان ما، لعلمه أن هذه القشور ستتحلّل وتتحوّل إلى سماد عضوي.

البيئة من أمامكم والعلم .. أيضاً

العلم الذي استُغلّت نتائجه لإغراق البيئة بالتجاوز انتفض للتكفير عن ذنوبه، فمدّ لها يد العون وراح يُسجل في كل يوم اختراعاً جديداً يصنف في خانة الدفاع عن البيئة والبحث عن طريق خلاصها. وفي ما يلي بعض ما أحرزه العلم (والتكنولوجيا) في خدمة البيئة:

- استبدل كوابل النحاس بكوابل من الألياف البصرية لنقل الإشارات الإلكترونية. إن كيبلاً واحداً زنته 65 غراماً من السيليكار (S_1O_2) يستطيع نقل إشارات أكثرعدة مرات من كيبل نحاس زنته 0.9 طن.
- ابتكر العلم أقراص الحاسوب لخزن المعلومات فحلّت محل الورق لتوفر منه الأطنان.
- صُنعت مواد صلبة جديدة لبناء ناطحات السحاب فوفرت 35٪ من وزن الصلب الذي كان يستعمل سابقاً.
- السيارات الجديدة أخف وزناً من سابقاتها نحو25٪ وكذلك التلفزيون والغسالة و...الخ.
- في بناء بيوت الخشب استُحدثت طرق لتوفير 70٪ من وزن الخشب.
- منذ سبعينيات القرن الماضي حتى اليوم تبدلت سماكة أكياس النايلون المستعملة لتصبح أرق بنسبة 70٪.
- علب الحليب البلاستيكية أصبحت أخف وزنا من سابقاتها بـ 40٪.
- الأكياس المصنوعة من اللدائن (البلاستيكية) المستعملة لتغليف المأكولات المجلدة أصبحت أقل وزناً بنسبة 89٪.
- حفاظات الأطفال الحديثة توفر 50٪ من الورق.
- نسبة تراكم النفايات انخفضت إلى النصف بسبب اتباع طرق التسميد وإعادة التصنيع.

هذه المنجزات مرشحة لأن تتضاعف مرات ومرات في ما يشبه الثورة الجديدة في الإنتاجية، حسبما جاء في تحليل نشر في كتاب "رأس المال الطبيعي" الصادر عام 1999م .



وأينما ظهر حلٌّ جديد لمعضلة بيئية، صار هذا الحل يفرض نفسه على حياتنا اليومية، فأكياس -النايلون- التي نحمل فيها مشترياتنا اليومية من المخازن بدأت تقل عدداً في العديد من الدول، لتحل محلها أكياس الورق القابلة للتحلّل في التربة. وتأكيداً على أن هذا التغيّر في عاداتنا اليومية واقعاً وليس أمنية، نرى متاجر عديدة تعلن أن البضائع التي تبيعها تُغلف في أكياس ورقية تتحلّل عضوياً.

أصدقاء الفيلة

يصعب حصر المجالات التي تغيرت فيها عاداتنا اليومية على الصعيد البيئي، فهي تبدأ بأبسط المسائل، مثل النظافة العامة في الشارع، وتنتهي في مجالات مشتركة بين البيئة والتوعية الصحية، مثل الامتناع عن التدخين هنا أو هناك، واعتماد الأغذية الخالية من المواد العضوية لا لدواع صحية فقط، بل لأن المبيدات والأسمدة الكيماوية تلحق أضراراً فادحة بالأرض والهواء والمياه الجوفية. وهذا التغيير وصل أيضاً إلى حملات حماية الطبيعة والأنواع المنقرضة.

وراحت الحكومات المختلفة تمنع صيد الفِيَلة التي كادت تَبيد على أيدي الطامعين في أنيابها العاجية، وبعض الدول (مثل الولايات المتحدة) منعت منذ ثلاثة عقود أو أكثر إدخال العاج إلى أراضيها في أي شكل من الأشكال، عند ذلك ظن تجار التحف أن أسعار العاج ستزيد كثيراً نتيجة قلة العرض. ولكن لا شيء من هذا حصل، بل انخفض الطلب بدوره، وصار هواة تحف كثر يرفضون اقتناء أية قطعة من العاج مهما كان ثمنها بخساً، تضامناً مع الفيلة ودعماً لمشاريع منع صيدها..!

وفي العموم صار تعاملنا مع الحيوانات أرقى من ذي قبل، فاقتناء حيوان أليف صار يعني نسج علاقة شبه دائمة مع طبيب بيطري. واختفت لا مبالاتنا القديمة تجاه حيوان يتعذب في الشارع ليحل محلها اهتمام حقيقي به وتعاطف معه.

حماية البيئة لمن يحب الحياة

لقد جعلت وسائل الإعلام المتطورة وشبكات الاتصال الدولية الحديثة العالم قرية واحدة، فما إن تحدث كارثة طبيعية في منطقة ما حتى تنتقل أخبارها تفصيلاً إلى كل البيوت على سطح هذه المعمورة. ولأول مرة نشعر أننا مهددون يحيق بنا الخطر، وأن عدّونا المشترك هذه المرة هو ما جنته حضارتنا وما تقترفه أيدينا كل يوم.

وعندما يُحس الإنسان بالخطر يبدأ بمراجعة عاداته اليومية (إن لم نقل المساومة على عاداته الاجتماعية) وهكذا بدأ المجتمع البشري في إعادة صوغ أخلاق التعامل مع الكائنات الأخرى التي تشاركه العيش على هذه الأرض والتعامل مع موارد الطبيعة الصامتة، وبتعبير آخر: أقرَّ الإنسان بحقوق بيئته عليه وبدأ يفكر في إنصافها.

والحقيقة التي لا بد من أن يوافق عليها الجميع هي أن أي إصلاح قانوني أو عملي أو سياسي تجاه البيئة سيبقى ناقصاً لا يفي بالغرض إلا إذا اقترن بنشاط الإنسان الفرد المقتنع والمتحمس والمؤمن بحق البيئة وبواجب حمايتها لتقف أخلاقه رقيباً على تصرفه. ليس المطلوب أن ننسف قواميس أخلاقنا أو أن نغيرها، إنما المطلوب هو أن نطور عاداتنا كي تصبح البيئة جزءاً من تفكيرنا وتصرفنا اليومي

(في الوعي واللاوعي) وهذا ما روّج له أحد برامج الأمم المتحدة قبل خمس سنوات، وقد بدأ ذلك يحدث بصورة تلقائية.

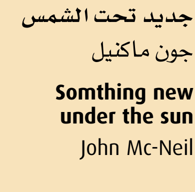
> إذا كان المتشائم لا يرى إلا أمراضاً جديدة وطبقة أوزون تتآكل، فإن المتفائل يرى انخفاضاً في عدد الذين يعانون من المجاعة (بدءاً من سنة 1960م) وازدياداً في معدل إنتاج الحبوب

لقد وفرت مدنية القرن العشرين فيضاً في إنتاج المواد الغذائية، وقضت علومها على عدد من الأمراض والأوبئة، لكنها كانت أرضاً خصبة لانتشار أمراض جديدة ستكون الشغل الشاغل لأجيال المستقبل، التي لا بد من تربيتها على قيم تأخذ في حسبانها ما لم يكن وارداً عند أسلافها. وكما لاحظ أرسطو فإن الأخلاق هي أكثر فروع الفلسفة تطبيقاً، فلا بد من أخلاق بيئية، وهذه الاخلاق ليست محلية خاصة بشعب دون غيره بل عالمية شاملة يتحلى بها الجميع، وهي جسر عبور بين الثقافات والحضارات. وقبل أن تسود الأعراف الجديدة سنظل نعاني، لكن المعاناة ليست كارثة إلى الحد الذي يصوره البعض، فحيث يعجّ المكان بالحياة لا يكون الظلام دامساً. وإذا كان المتشائم لا يرى إلا أمراضاً جديدة وطبقة أوزون تتآكل، فإن المتفائل يرى انخفاضاً لعدد الذين يعانون المجاعة (بدءاً من سنة 1960م) وازدياداً في معدّل إنتاج الحبوب يفوق وتيرة ازدياد عدد سكان الأرض (بدءاً من سنة 1978م)، ويرى أن 8٪ من مساحة العالم قد عُزلت (محمياتٍ أو ما شابه) لحماية الحياة البرية، ويرى أن نسبة تلوث الماء والهواء بدأت بالانخفاض في أكثر الدول الصناعية (منذ سنة 1970م). قد نوافق المتفائلين رأيهم وقد لا نوافقهم، فحدس الإنسان لا يُقمع، لكن بعض المحللين يصر على أن التهافت قد أصبح تحت السيطرة، ويبقى للإنسان الجديد أن يقرر مصير بيئته.



لوحات المقال لأطفال شاركوا في مسابقة أرامكو السعودية عن البيئة.

إقرا للبيئة



جديد تحت الشمس

جون ماكنيل

Somthing new under the sun

John Mc-Neil

في هذا الكتاب استعراض تاريخي للوضع البيئي على الكرة الأرضية، يعود بنا إلى الألف العاشر قبل الميلاد. ويتضمن الكتاب بعض الإحصاءات ويقارن بالأرقام ما أنتجه الإنسان من طاقة ومواد غذائية، ومن ملوّثات بيئية في كل حقبة من تاريخ الإنسانية، فيستخلص أن القرن العشرين كان مميزاً بأرقامه الخيالية من حيث زيادة عدد السكان وازدياد التلوث في الماء والهواء .

الحياة في البيئة

ج. تايلور ميار الإبن

Living in the Environment

G.Tyler Miller Jr.

كتاب جامع وشامل، مفيد لطلبة المدارس والجامعات وللمتخصصين في علوم البيئة. يعرّف بالبيئة ويعرض تقريرا عن وضعها، ويستعرض توقع العارفين بأمورها عن مستقبل المقاييس البيئية والوضع البيئي إجمالاً. صدرت منه حتى الآن 12 طبعة.

صورة شخصية

مع عزّة الدغيثر.. رسالة المعماري في عمارته

تخرج من مكتب المعمارية عزة الدغيثر وقد ازددت اقتناعاً بمكانة فن العمارة وأهميته في حياتنا. تتلفت إلى المباني حولك، مختبراً ما استقبلته من حديث يعطي للعمارة بعداً فكرياً وإنسانياً.

سيرة

قبل 15 سنة عادت عزّة الدغيثر إلى المملكة بعد أن أنهت دراستها في جامعة سيراكوز بنيويورك. بدعم من والديها رحمهما الله، فقد شجعتها والدتها على التخصص في الهندسة، ودعمها والدها في ميدان العمل. لم تجد في البدء مكتباً هندسياً تنضم إليه، فقامت بنشاطات متنوّعة منها المشاركة في صناعات يدويّة، ثم عملت في الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض. تقول عزة معلقة على ذلك: إن مجموعة النشاطات التي قامت بها قد وسعت آفاقها وسمحت لها بالتعامل مع سيدات المجتمع السعودي في سعيهن للعطاء والإبداع. وعلى إثر محاضرة ألقتها في جمعية النهضة النسائية طلبت منها سيدتان القيام بتجديد بيتهما بعدما استحوذ تفكيرها على إعجابهما. وقامت بعد ذلك بتأسيس شركة مع مصممة ديكور سعودية مرموقة، هي السيدة سيما ملك. وخلال سبع سنوات نفذت عزة وسيما مشاريع عديدة. ومضت عزّة في مسيرتها المهنيّة الناجحة ولا تزال.

وفي جانب آخر من حديثنا معها تنفي وجود أية صعوبات في العمل لكونها سيدة، وتؤكد أنها تشعر بالاحترام والتشجيع والتعاون من قبل أصحاب المشاريع والمهندسين وحتى عمال البناء في المواقع.

عمارة .. لنا..!

للعمارة رسالة، كما تقول عزّة، وحين يضع المعماري روحه في تصميماته يقوم المبنى كعمل فني يقرؤه الناس، والناس قادرون على قراءة رسالة المعماري في عمارته.

كما تؤمن بأن هناك حواراً غير مرئي ولكنه محسوس بين المبنى وساكنه، مستخدم المبنى، فيلجأ للمعماري، الذي يقوم بترجمة أفكاره ويقتبس شخصيته ويعبر عنها بمفرداته المعمارية.

الهندسة المعمارية في نظرها موضوعها الإنسان ومادتها البيئة وعلمها التقنية المتوافرة، فإذا اجتمعت هذه العناصر الثلاثة نضعها معاً لننشئ عمارة تنتمي لنا. عمارة معاصرة لكنها عمارة تنسجم مع الصفات الروحية لمجتمعاتنا.

عزّة الدغيثر في مكتبها

نحن ننتمي لمجتمع متديّن، وفي أعماق كل واحد منّا نزعة روحية راسخة. والإنسان السعودي والعربي يحب أن تنعكس هذه النزعة على بيته الذي يعتبره مملكته وملاذه.. فهو ينشد الجمال والراحة، وبهذا نصل إلى ما هو أبعد من فلسفة حياتنا اليومية، إلى ركيزتي الحياة البشرية: الرجل والمرأة وأهمية توحيدهما وانسجامهما للوصول بهما إلى التكامل والصفاء والجمال في بحث دؤوب عن الأفضل، وهو ما نطمح إليه كأسلوب حياة. وهذا ما تجسده فلسفة (بان يانج) اليابانيّة - الشيء والشيء الآخر.. وبهذا الانسجام يتحقق الكمال.

بنيان ليس للإنسان

اليوم نحن في الشرق-في كل الشرق- أسرى التقليد. نقلّد الغرب في أغلب الأحيان، وإلا فإننا ننقلب للماضي ونكرر المباني القديمة حرفياً.

فن العمارة في الغرب أسقط الإنسان من حساباته. وبعد الثورة الصناعية تحديدا ظهرت كثير من الحركات المعمارية التي لم تعد تأخذ الإنسان بعين الاعتبار، وتم التأكيد فقط على شخصية المعماري منفصلا عن شخصية المستخدم، فانعدم الحوار الأهم في العلاقة المتبادلة بين الاثنين.! وهذه الاتجاهات المعمارية تجدها في مبانيها، تارة قاسية بلا مشاعر وطوراً تصل في محاولة تحريك المشاعر إلى حد الجنون. وعلى طرفي النقيض الإنسان غير موجود فهو يجلس في الوسط. إن المعماري الحقيقي هو الذي يستطيع أن يكون إنساناً أولاً وأخيراً، وهو الذي يوازي بين كل معطيات الحياة من علم وتكنولوجيا وبيئة. إنه الإنسان. يبقى عمرانه عبر العصور رسالة إلى البشرية.



هل يأتي يوم يرى فيه الإنسان الطرف الأخير من الكون .. ؟

فضاء..

خلفه فضاء.. خلفه فضاء..

من منا لم يتأمل صفحة السماء في ليلة أضاءتها النجوم؟ أي إحساس بالرهبة والمجهول .. أي تساؤل.. وأي إدراك لعظمة الخالق الذي أبدع هذا الكون .. وأين نحن منه؟ .. هذه الأسئلة الكبيرة التي تملأ ذهن أي إنسان بسيط تظل هي نفسها أسئلة العلم اليوم. ويكاد العلماء يعييهم البحث في أبعاد الكون وألغازه وتحولاته .. وكلما ظنوا أنهم يقتربون من الإجابات الأخيرة، اكتشفوا أن ما وصلوا إليه لا يتعدى الأسئلة الأولى.. حيرة خلفها حيرة خلفها حيرة ..!

فريق من محرري القافلة أعدّ هذا البحث.

في مشروع وصفه عدد من العلماء "بالجنون"، أطلقت وكالة الفضاء الأوروبية في مطلع العام الجاري مسباراً يدعى "روزيتا"، مهمته أن يهبط في العام 2012م على سطح المذنَّب "فيرتانن" على بعد 800 مليون كيلو متر من الأرض. وصادف إطلاق هذا القمر الصناعي حدثاً لا يقل قيمة ، هو بدء القمر الصناعي الأميركي "ماب" مهمته الرامية إلى تصوير الإشعاعات القديمة في الكون للحصول- بعد معالجة هذه الصور بواسطة الكمبيوتر-على صور فوتوغرافية للكون كما كان بعد تكوينه بثلاثمائة ألف سنة فقط، أي في طفولته..!

وفي الوقت نفسه يتابع التلسكوب الفضائي "هابل" مهمته المدهشة، فيمطرنا كل يوم بصور يلتقطها من أعماق الكون، تارة لمجرة يبتلعها ثقب أسود في مجرة أخرى، وتارة لانفجار (سوبرنوفا) حدث قبل عشرة مليارات سنة.. ويستمر هذا الإبحار الهائل الذي يصيبنا برعشات متتالية ونحن لا ندري إلى أين سوف يصل.. فنحن-فعلاً- كلما عرفنا شيئاً عرفنا أن ما لا نعرفه أكثر. واليوم يلح علينا السؤال الأول: هل يأتي يوم يرى فيه الإنسان آخرَ الكون؟... أي أول الكون؟

«أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إلاّ كُفُورًا» (الإسراء - 99)

الفضاء لماذا؟

ليس لاهتمام الإنسان بالفضاء بداية معينة، ولكنها تعود حتماً إلى يوم رفع فيه الإنسان الأول عينه إلى الأعلى متأملاً بحيرة من الشمس والقمر والنجوم.. كانت أسئلته آنذاك محدودة العدد: ما هي طبيعة هذه الأجسام؟ ولماذا لا تسقط على رؤوسنا..؟ لذلك، يجدر بنا أن نبدأ حديثنا بالسبب أو الأسباب التي دفعت بالإنسان إلى التفكير في استكشاف الفضاء.

لماذا يكرس آلاف العلماء جهودهم في هذا الميدان؟ ولماذا تصرف مليارات الدولارات على علم يعتقد البعض أنه لا يمس حياتهم اليومية مباشرة؟ (المِقراب- التلسكوب الفضائي "هابل" وحده كلف ثلاثة بلايين دولار !!).

مراحل استكشاف الفضاء

في العموم ، يمكن القول: إن الاستكشاف العلمي للفلك والفضاء مرّ تاريخياً بثلاثة أطوار:

الطور الأول، يمتد منذ القدم حتى منتصف القرن العشرين، وكان تطور هذا العلم فيه بطيئاً نسبياً، إذ كان يعتمد في المقام الأول على القدرة الفردية عند هذا العالِم أو ذاك. ومع ذلك أحرز الكثير في تلك المرحلة، بدءاً باعتماد البحّارة القدامى على مواقع النجوم للاسترشاد في إبحارهم ووصولاً إلى اكتشاف بلوتو آخر كواكب المجموعة الشمسية في العام 1930م، مروراً بالتقاويم الشمسية والقمرية الدقيقة التي وضعها الفراعنة والعرب.

أما الطور الثاني فقد بدأ غداة الحرب العالمية الثانية، إذ دفع التطور التقني -ولاسيما تقنيات الصواريخ- بالعلماء إلى التفكيرفي الخروج إلى الفضاء لاستكشافه عن كثب، بدلاً من مراقبته بالمِقراب، فتكتلت جهود الأفراد في بعض الوكالات الكبرى التي تتولى الدول الإنفاق عليها وتمويل مشاريعها. وراحت البشرية جمعاء تراقب الخطوات العملاقة التي تبارى بها الأميركيون والروس نحو

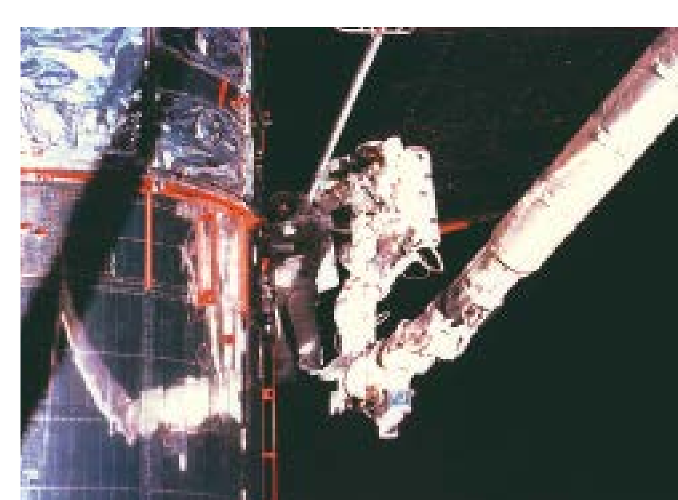
الفضاء الخارجي: إطلاق أول قمر صناعي روسي "سبوتنيك ١" العام 1957م، رحلة يوري غاغارين، أول إنسان يخرج إلى الفضاء العام 1961م، وصول المركبة الأميركية "مارينر 5" إلى سطح الزهرة العام 1967م، وهبوط المركبة السوفياتية" فينوس 4" على سطحه. وكانت الذروة رحلة "أبولو 11" التي توّجها نزول أول إنسان "نيل أرمسترونغ" على سطح القمر في 21 يوليو 1969م.

اتسمت هذه االمنجزات، إضافة إلى قيمتها العلمية، بطابعها الاستعراضي الضخم، فالعالم بأسره تابعها آنذاك، وكأنه في رهان على المعقول واللامعقول ... ولكن برامج استكشاف الفضاء فقدت تدريجياً بريقها الشعبي - إذا جاز التعبير - لينحصر هذا البريق في نوادي العلماء وأصحاب الاختصاص، فالرحلات

ولكن لماذا فقد الرأي العام العالمي اهتمامه بمتابعة استكشاف الفضاء وعلومه؟

الجواب ببساطة هو أن خروج الإنسان إلى الفضاء المحيط بالأرض والعمل فيه، صار أمراً عادياً، ليس فيه ما يثير الخوف أو الترقب أو الدهشة، فما بين رحلة غاغارين إلى الفضاء الخارجي وهبوط أرمسترونغ على سطح القمر، هناك 39 رجلاً وامرأة واحدة قاموا برحلات إلى الفضاء الخارجي. وإذا كانت رحلة غاغارين اقتصرت على ساعة واحدة وخمسين دقيقة فقد صار مألوفاً أن يقيم روّاد الفضاء أشهراً عديدة على متن المحطات التي تدور حول الأرض.

وفي أقل من نصف قرن، منذ إطلاق أول قمر صناعي، أصبح عندنا اليوم أكثر من عشرة آلاف



التلسكوب الفضائي «هابل»



صورة نموذجية للمجرة الحلزونية، الوحدة التي تؤلف العنصر الأساس في الكون

اللاحقة من برنامج "أبولو" لم تلقَ متابعة الرأي العام العالمي كما لقيت "أبولو 11"، إلا إذا استثنينا "أبولو 13" التي كادت تنتهي إلى كارثة، فقطعت رحلتها القمرية وعادت على عجل إلى الأرض.

وأحياناً تعود البشرية -على فترات - إلى متابعة الأحداث الفضائية الكبرى مثل هبوط المركبة غير المأهولة "باث فايندر" على سطح المريخ في ٤ يوليو 1997م، من دون أن يعني ذلك أن هذا الحدث-بالضرورة- أهم من أحداث أخرى مرافقة، إذ أن هذه المتابعة تعزى بالمقام الأول إلى ضغط إعلامي يرمي إلى جني مكاسب سياسية على صعيد زيادة موازنات وكالات الفضاء والبرامج الفضائية.

جسم صنعها الإنسان تدور حول الأرض. صحيح أن أكثر من نصفها ميت، ويتراوح ما بين آلة تصوير أفلتت من يد أحد الروّاد، وطابق من صاروخ فقد وظيفته ويدور على سجيته في مدار حول الأرض، ولكن هناك مئات الأقمار الصناعية الناشطة، وتتراوح مهامها ما بين دراسة الطقس والجغرافيا الجيولوجية والتجسس العسكري والاتصالات، وغير ذلك مما يصعب حصره، غير أن قسماً كبيراً منها يتنامى عدده بسرعة وهو ذلك المخصص لدراسة النظام الشمسي و.. الكون بأسره..!

علم الكون

ببطء شديد أولاً، ومن ثَمَّ بسرعة تفوق التصور، تطّور في رحم علوم الفضاء والفلك ما يُعرف اليوم

بـ "علم الكون" (Cosmologie). وندخل إلى هذا العلم من باب التعريف بالكون.

«كلما ازدادت معرفتنا العلمية للكون، ابتعدت حدوده عن إدراكنا أكثر فأكثر»

تعد المجرّة الوحدة الأساس في الكون الذي يتألف من مجموع المجرات المعروفة، أي التي رُصدت، وتلك التي نفترض وجودها استناداً إلى المعطيات المتاحة على صعيد الفيزياء الفلكية. وتتألف المجرة بدورها من مجموعات كبيرة من النجوم والكواكب والغبار الكوني والثقوب السود. وعلى سبيل المثال، فإن أرضنا تنتمي إلى المجموعة الشمسية التي تنتمي إلى مجرة "درب التبانة" أو "الدرب اللّبن" إذا اعتمدنا الترجمة الحرفية لاسمها بالفرنسية أو الإنجليزية. وتضم مجرتنا نحو مليارين من النجوم، وتنتمي إلى مجموعة تسمى "المجموعة المحلية" تضم 35 مجرّة، أكبرها مجرّة المرأة المتسلسلة "Amdromeda" التي تبعد عنا مسافة 2.4 مليون سنة ضوئية (أبعد هدف يمكن أن تراه العين المجردة في الفضاء)، وتضم 300 مليار نجم..!

لقد ثبت أن النجوم التي تكوّن تجمعات مجريّة تعدّ بالمليارات. وأمكن تقدير مجموع المجرّات في الكون بمائة مليار وحدة. وقد تمكن العلماء بوساطة المقاريب (التلسكوبات) والحسابات الرياضية من اكتشاف بعضها على مسافة عشرة مليارات سنة ضوئية من الأرض. وللإيضاح نشير إلى أن السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة، وتساوي: $365 \times 24 \times 3600 \times 3 \times 10^5$ كيلومتراً.

ذكرنا هذه الأرقام التي تسبب الصداع لإيضاح ميدان عمل علم الكون. فماذا عن نشأة هذا العلم وتطوره؟

علم الكون اختصاص حديث العهد نسبياً، فقد شهد العام 1916م تأسيس النظرية النسبية العامة التي وضعها العالم الشهير ألبرت أينيشتاين، وتعدّ هذه النظرية الأساس للعلم الذي يدرس تركيب الكون وتوازنه.

بين عامي 1922 و 1924م استطاع العالم السوفياتي فريدمان أن يجد حلاً رياضياً لمعادلة أينشتاين، يتناول نموذجاً غير مستقر للكون. وبرهن فريدمان أن الكون لا يمكن أن يكون مستقراً فهو يتمدّد ويتقلص. وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي جرى فيها الحديث عن تطور الكون (تمدداً أو تقلصاً)، مؤسسة بذلك بداية لرحلة جديدة يقوم بها علم جديد يتناول الكون بأسره.

يعتمد علم الكون على المقاريب (التلسكوبات) الفضائية والأقمار الصناعية والأدمغة الإلكترونية التي كلما تطوّر أي منها زادت المعلومات والأدلة والصور الفوتوغرافية الدامغة. ولكنه يعتمد أكثر من ذلك على التحليل العلمي والمعطيات غير المباشرة بالاستناد إلى قوانين الفيزياء الفلكية. ولإعطاء فكرة عن منهج هذا العلم الجديد نسبياً نضرب ثلاثة أمثلة هنا:

الثقوب السود

حار العلماء في الماضي في تفسير وجود فارق كبير بين احتساب وزن الكون استناداً إلى كثافة المادة المرئية من جهة، وقوانين الفيزياء من جهة أخرى. والفارق كبير جداً بين الرقمين ويصل إلى نحو 85 في المائة، فراحت نظرية جديدة تتطور بسرعة، وافترض العلماء أولاً أن هناك كتلاً غير مرئية في الكون تبلغ نحو 85 في المائة من زنته. وخطر في بال العلماء في الثمانينيّات من القرن الميلادي الماضي، أن يسموها بـ "الثقوب السود". وكان عليهم الانتظار حتى التسعينيات لكي يتمكن المقراب الفضائي "هابل" من تقديم الأدلة الدامغة على وجودها.

وباختصار فإن الثقوب السود هي عبارة عن كتل شديدة الكثافة، تتمتع بقوة جاذبية هائلة، تمنع كل الجسيمات التي في داخلها من الإفلات إلى خارجها. وهي قادرة على جذب كل جسم يمر بالقرب منها وابتلاعه فوراً.

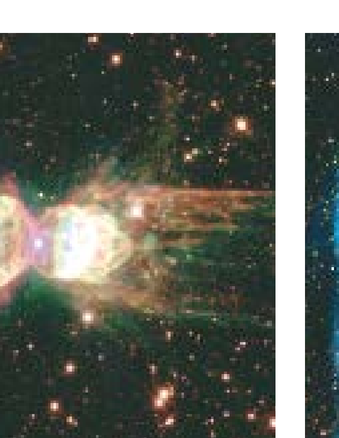
حتى فوتونات الضوء تنجذب نحوها وتنحبس داخلها، ونتيجة لجاذبيتها الهائلة لا يستطيع الضوء أن يخرج منها، ولذا فهي تبدو سوداء ومن هنا جاءت تسميتها.

ولإعطاء فكرة عن كثافة هذه الثقوب نشير إلى أن كوكب الأرض ينضغط داخلها إلى كرة شعاعها 89 سنتمتراً فقط. والشمس تصبح كرة شعاعها ثلاثة كيلومترات فقط. وعلى الرغم من أن هذه الثقوب السود لا تبث أي ضوء أو إشارة إلى خارجها فقد تمكن علماء الكون من تأكيد وجودها، بل من تصنيفها أيضاً حسب أحجامها، وذلك من خلال دراسة ما يحيط بها، أي اعتماد الدراسة غير المباشرة. وهي على التوالي الثقوب السود الصغرى الموجودة بين المجموعات النجمية والثقوب المتوسطة، وهي التي كانت صغيرة وراحت تكبر نسبياً بابتلاع المادة القريبة منها، والثقوب السود الضخمة الموجودة في أواسط المجرات (وبعضها يصل في ثقله إلى بلايين عديدة قياساً بوزن الشمس). ومنذ أواسط التسعينيّات راحت

الصور الفوتوغرافية التي التقطها المقراب الفضائي "هابل" تؤكد وجود هذه الثقوب وتعيّن مواقعها بدقة، ولكن من دون رؤية أي منها.

نظرية الانفجار العظيم

المثل الثاني الذي نضربه عن علم الكون يتناول واحدة من أكبر قضاياه وأطولها عمراً، وهي نظرية الانفجار العظيم. تقول هذه النظرية إن بداية الكون كانت انفجاراً. ليس انفجاراً بالمعنى المألوف على الأرض الذي يبدأ من مركز معين ثم ينتشر مغطياً مساحة أكبر فأكبر، لكنه انفجارٌ عمّ الفضاء بأسره في الوقت نفسه. هذا الانفجار لم يكن ناتجاً عن فرق بين ضغط الجسم المنفجر وضغط محيطه،إذ ليس للكون محيط، وهو ليس محاطاً بفراغ بل سيشمل كل الموجودات بما فيها الفراغ.





فضاء خلفه فضاء

وحسبما جاء في وصف العالم الأميركي واينبرغ في كتابه "الدقائق الثلاث الأولى في تاريخ الكون" كانت حرارة الكون- بعد جزء من مئة من الثانية بعد الانفجار العظيم- تساوي نحو مئة مليار درجة مئوية، وهي درجة مرتفعة إلى حد لايمكن معها لأي من الأجزاء المكونة للمادة العادية أن توجد. كانت المادة المتناثرة مجموعة نماذج مختلفة مما يسمى بالجسيمات الأولية كالإلكترونات والبوزيترونات والنيوترونات والفوتونات.
وفي تطور لاحق للانفجار العظيم هبطت درجة الحرارة ـ بعد جزء من عشرة من الثانية ـ إلى ثلاثين مليار درجة، وبعد ثانية واحدة إلى عشرة مليارات، وبعد أربع عشرة ثانية إلى ثلاثة مليارات.

وبعد ثلاث دقائق من الانفجار انخفضت درجة الحرارة إلى مليار درجة فقط، فكان هذا الانخفاض كافياً لأن تبدأ البروتونات والنيترونات بتكوين النوى المعقدة بدءاً بنواة الهيدروجين الثقيل، وتحولّت هذه النوى إلى نوى أكثر ثباتاً كنوى الهليوم.
وبعد مئات الآلاف من السنين هبطت الحرارة إلى درجة استطاعت فيه الإلكترونات أن تلتحم بالنوى لتشكل ذرات الهيدروجين والهليوم، وبدأ الغاز المتكوّن يتكثف بتأثير الجاذبية ليصبح لاحقاً النجوم والمجرات.

هذه النظرية تعتمد على التحليل العلمي لا على التجربة العلمية، ولا تزال حتى اليوم مثار جدل كبير، إذ أن الفيزياءالفلكية تطرح أسئلة يعجز أصحاب هذه النظرية عن الإجابة عنها. وهناك نظرية أخرى مناقضة لنظرية الانفجار الكبير، انتعشت على أيدي العلماء بونداي وغولد وهويل، وترى هذه النظرية أن الكون مستقر وأنه كان على ما هو عليه منذ ولادته. وتفترض هذه النظرية أن المادة تخلق باستمرار في الكون، وبالسرعة اللازمة لكي يحافظ الكون على كثافة ثابتة. أما "طفولة" الكون فلا داعي للتوقف عندها حسب هذه النظرية، لأن الكون لم يتغير منذ طفولته. وفي إطار البحث عن أدلة لهذه النظريات من خلال رسم خرائط الكون وضع العلماء صوراً تقريبية لقسم كبير منه.

وتُظهر هذه الصور أن الكون متجانس، أي أننا لو أخذنا توزيع النجوم في نطاق ضيق نسبياً من الكون، لوجدنا أن هذا التوزيع غير منتظم، أي أن كثافته تختلف اختلافاً حاداً بين منطقتين متجاورتين، ولكن على نطاق ثلاثمائة مليون فرسخ فلكي وما فوق، يبدو الكون متجانساً (الفرسخ الفلكي يساوي 31×10^{16} أمتار).

وقد تأكد للعلماء تجانس الكون من خلال اختبار اعتمد على الكمبيوتر لرسم توزيع 10 آلاف مجرة معروفة ضمن مكعب يبلغ طول ضلعه 261 مليون سنة ضوئية، فثبت أن المجرات تتجمع في كتل قريبة من جدران المكعب وفي وسطه، تاركة بينها فراغات كبيرة تصل حدود الجاذبية فيها إلى الصفر المطلق، الأمر الذي دفع العلماء إلى وصف تركيبة شكل الكون بالإسفنجية.

الكون كونان ... ثلاثة أو أكثر ..!

هناك ثمة نظريات حديثة أخرى عن حقيقة الكون الذي نعرفه، وتقول بوجود أكوان متعددة، فالكون الذي نعرفه مجرد نموذج واحد لعدد كبير غير متناهٍ من

هذه الأشياء التي يتألف منها. وبدأت الريبة في أن يكون كوننا وحيداً من خلال ما يعرف بتفسير كوبنهاغز الذي وضع أسسه العالم الدانمركي نايلز بوهر. وكان هيوغ إيفيرت قدم أول عرض له العام 1957م. وتقول هذه النظرية إن الكون يعمل فعلاً كما اعتقد علماء القرن التاسع عشر، ولكن لكي يكون هذا العمل ممكناً فإنه لا يمكن للكون أن يكون وحده.

في البدء رفض معظم الباحثين نظرية أيفيرت ، ولكن في الأعوام القليلة الماضية، تبنى الباحث في جامعة أوكسفورد ديفيد رويتش نظرية أيفيرت حول تعدد الأكوان، وأكثر من ذلك أصر على أنه يمكن التعامل معها.

«هل هناك فعلاً كون آخر يصطدم بكوننا مرة كل بضع تريليونات سنة؟»

وتفترض هذه النظرية تضخماً لا ينتهي في تفسيرها لولادة الأكوان المتعددة. ولكن لدى الفيزيائي (لي سمولن) تفسيراً مختلفاً للأكوان المتعددة، واستناداً إليه فإن الثقوب السود التي تكوّنت حديثاً هي بذور الأكوان الجديدة، فهي تتوسع في إطار أبعادها الخاصة بغض النظر عن مكان تكوّن الثقوب. وكل كون كان يولّد كوناً آخر كلما كوّن ثقباً أسود فيه.

وتزداد الصورة تشويشاً، فهناك فرع جديد في نظرية تعدد الأكوان، يتحدث عن كونين فقط. هذه النظرية عرضتها المجلات العلمية المتخصصة خلال الأشهر القليلة الماضية.

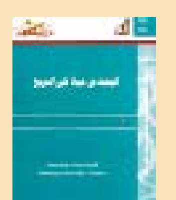
وضع هذه النظرية (بول ستينهارد) من جامعة برنستون و(نايل ثاروك) من كامبردج، وتقول إن هناك كونين متوازيين يتصادمان بين الحين والآخر، وأن هذا التصادم استناداً إلى حساباتهما، يؤدي إلى النتائج نفسها الناتجة عن التضخم اللامحدود. وبعد ما تحدثت هذه النظرية عن اصطدام واحدٍ بين كونين متوازيين توسع العالمان المذكوران وصارا يعتقدان أن هذين الكونين، أي كوننا والكون الآخر، يتصادمان على نحو مستمر (مرة كل بضعة تريليونات سنة)، وفي كل مرة يحدث هذا تبدأ موجة جديدة من التكوين ...!!

لقد وضع العلماء مجموعة هائلة من الخرائط الكونية لهذا الجزء من الكون أو ذاك. وهذه الخرائط تزداد عدداً وحجماً يوماً بعد يوم. فهل سيتمكن الإنسان من وضع الخريطة الكاملة للكون؟

بعبارة أخرى، هل نرى يوماً آخر الكون؟

صور الموضوع: رويترز

اقرا للعلم



البحث عن حياة على المريخ
دونالد جولدسميث
ترجمة: د. إيهاب عبدالرحيم
سلسلة عالم المعرفة – الكويت

في شهر أغسطس 1960م أذهل علماء وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) العالم بإعلانهم أن حجراً (نيزكاً) سقط من المريخ على الأرض وأظهر آثاراً تدل على وجود نوع بدائي من الحياة. وبالرغم من أن البحث عن حياة خارج كوكب الأرض ظل واحداً من أعظم الأسئلة التي حيّرت البشرية منذ القدم، فقد مثل هذا الاكتشاف المذهل أول دليل حقيقي على أنه ربما كانت هناك حياة بالفعل في مكان آخر من الكون.
في هذا الكتاب يصطحبنا المؤلف خطوة خطوة في واحدة من أعظم قصص الإثارة العلمية في عصرنا الحديث .



مجلة العلم والحياة
ديسمبر 2002م
Science & Vie
December 2002

إن أفضل المراجع عن علوم الفضاء هي عموماً أحدثها عهداً. في شهر كانون الأول (ديسمبر) 2002م أصدرت مجلة "العلم والحياة" الفرنسية عدداً خاصاً من 160 صفحة عنوانه "ألغاز الكون"، تضمن مجموعة من المقالات بأقلام اختصاصيين في علوم الفضاء والكون.ونذكر هنا عدداً من عناوينه للدلالة على تشعب علوم الكون والأعماق التي وصلتها المعرفة الإنسانية. من هذه العناوين: شكل الكون: نهاية لغز؟، من أين تأتي النجوم؟، الوجه المظلم للتوسع الكوني، أضواء على الثقوب السود الثقيلة، انطلاق جديد لنظرية الانفجار الكبير.

لقد بحث الإنسان دوماً عن طرق لحزم الأوراق.. استعمل التغرية، والخياطة، والشريط، وغيرها .. ثم ظهرت الدباسة.!

قصة ابتكار

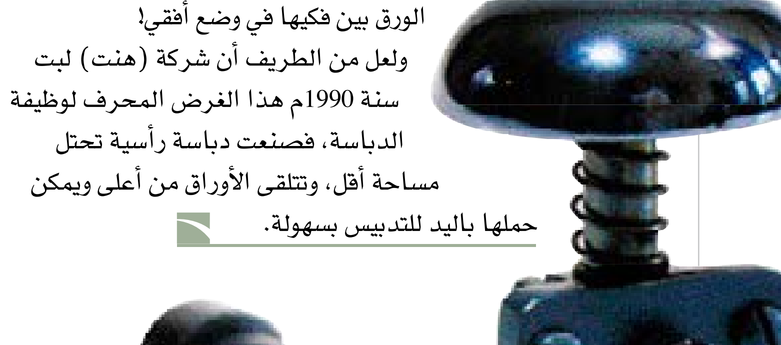
ظهرت الدباسة، بشكل متقطع وخطوات بطيئة، منذ الثلاثينيّات من القرن العشرين.. حيث ابتكرت مضاغط عليها دبوس واحد فقط يقتضي استعمالها على جانبي الورق، وظهرت ابتكارات أخرى تؤدي الوظيفة نفسها على دفعتين أو ثلاث، ولكن كل تلك الأنواع لم تكن مقنعة في أدائها لتاجر القرطاسية جاك لينسكي الذي كان يبيعها، وبذكائه تلمس حاجة الناس لدباسة عملية خفيفة الوزن، تحمل كمية كبيرة من الدبابيس في داخلها.

ومن هنا نشأت الفكرة، حيث أقام لينسكي مصنعا لإنتاج الدباسات والدبابيس في آن واحد، وأنتج دبابيس مغرّاة (ملصقة إلى بعضها في شريط) وكان هذا من أهم الإضافات في الطريق إلى الدباسة الحالية، لكن نظام تعبئة الدبابيس ظل مزعجاً، إذ كان يحتاج إلى مفتاح براغي ومطرقة.

كان لينسكي بائعاً ذا نظرة ثاقبة ويعرف حاجة الناس الحقيقية، وخلال رحلة لأوروبا عاد بأفكار جديدة لجعل تحميل الدبابيس أكثر سهولة. ابتكر نظام تعبئة الدبوس من أعلى الدباسة، وسجل هذا الاختراع وهو ما نعرفه حتى يومنا هذا، حيث أن الدباسة التي طوّرها لينسكي عام 1937م هي الدباسة نفسها التي نستعملها اليوم وهي دباسة القناة المفتوحة.

والحق أن الدباسة كانت وما زالت اختراعاً بسيطاً مدهشاً غزا عالم التصميم الصناعي وبهر الصناعيين. ورغم ظهور الدباسة الكهربائية في الخمسينيات إلا أن أفكار لينسكي ظلت هي الأساس. والغريب أن معظم الدباسات صممت لتكون موضوعة على الطاولة أثناء عملية التدبيس، ولكن من منا لم يرفع الدباسة إلى الورق بدلاً من وضع الورق بين فكيها في وضع أفقي!

ولعل من الطريف أن شركة (هنت) لبت سنة 1990م هذا الغرض المحرف لوظيفة الدباسة، فصنعت دباسة رأسية تحتل مساحة أقل، وتتلقى الأوراق من أعلى ويمكن حملها باليد للتدبيس بسهولة.





الفنان الذي رسم مركبات غزو الفضاء قبل تصور العلم الحديث لها، وألهمت رسوماته علماء الفضاء فحولوها إلى واقع....

قصة مبتكر



شسلي بونستل

يعتبر الرسام الأمريكي شسلي بونستل رائداً في رسم الفضاء وما يجري فيه، ومبتكراً لآلاته وأدواته. ولد في سان فرانسيسكو عام 1888م وتعلم الرسم كهواية. أثارت خياله كتب الفلك والعلوم آنذاك، فبدأ ينتج رسوماً خيالية عن العالم الذي أحبه.

وبعد إكمال دراسته الثانوية عمل مع والده في تجارة الورق وتلقى دروس الرسم في المساء.

وفي عام 1905م قام بزيارة لسان خوسيه وذهب للتمتع بمشاهدة الفضاء عبر التلسكوب المنصوب هناك فسحره جمال ما شاهد وأجّج حلمه القديم، ثم بدأ برسم مجموعة لوحات فضائية.. ولكن زلزال 1906م قضى على جميع لوحاته.

توجه بونستل إلى جامعة كولومبيا بنيويورك لدراسة المعمار نزولاً عند إرادة والده، وسرعان ما هجر الدراسة وعمل مصمّم ماكيتات ورساماً هندسياً لدى أشهر المعماريين آنذاك وشارك في تصميم جسر البوابة الذهبية المشهور.

في عام 1920م تزوج البريطانية روبي هيلدر وعاش معها في بريطانيا لمدة ست سنوات عمل خلالها بالرسم الهندسي والإعلان، كما نشرت رسوماته في مجلات مرموقة. وحدث أن نشرت له رسوم هندسية في مجلة (ذي إلستريتيد لندن نيوز)، إلى جانب رسومات فنانين بريطانيين وفرنسيين، كان موضوعها الفضاء، فأثاره الموضوع مجددا، فذهب إلى هوليود للعمل كرسام مؤثرات خاصة، وسرعان ما ذاعت شهرته، فشارك في رسم خلفيات المشاهد لأفلام كبيرة أشهرها (المواطن كين). انفتح الطريق أمامه حين تعاقدت معه مجلّة (لايف) لرسم مجموعة رحلة عطارد مقابل ثلاثين ألف دولار، فكانت رسومه حية مدهشة، وكان أكثرها إثارة رسمه لأحد أقمار عطارد (تيتان) وهو مغطى بالغيوم والغازات، ورسم ذلك من خياله ليثبت فيما بعد ما تخيله.



وفي عام 1947م شارك في مشروع الطائرة الفضائية وكانت لوحاته للطائرة في إقلاعها وهبوطها تفوق الخيال وتسحر الألباب. وفي عام 1949م جمع رسومه في كتابه الأول فصار أكثر الكتب مبيعاً.

أقنعت رسوماته الكثيرين بأن الرحلات الفضائية يمكن أن تتحول إلى واقع، والكثير من مهندسي الفضاء ورواده بدأ حلمهم الفضائي بمشاهدة لوحاته في طفولتهم.. يقول كارل ساغان: لم أكن أعرف ما هي العوالم الأخرى حتى رأيت رسومات بونستل للنظام الشمسي.

ازدادت شهرته مع رسومه لأفلام الخيال العلمي مثل رحلة إلى القمر، فارس الفضاء وغيرها. وكان صديقاً شخصياً لرائد صناعة الصواريخ الفضائية العالم الألماني الأصل فون براون الذي يقول عنه: «كنت دائما أعطيه رسوماتي الأولية فيعيدها لي حية مع الكثير من الملاحظات». وكانت رسوماته، المفضلة شعبياً، من الأعمال التي عرضت على زعماء الكونجرس وشكلت دافعاً لتخصيص ميزانيات برامج الفضاء.

اطلب العلم

أنظمة المعلوماتية والمكتبات العربية

لم تنعم المكتبات العربية في تاريخها، وخصوصاً في حاضرها، بالرعاية التي حظيت و تحظى بها مثيلاتها في بلدان الغرب المتقدم. وما فتئ المشتغلون بشؤون المكتبات والمعلومات يشعرون بالتخلف والقصور. ففي فترة ما قبل التطورات التكنولوجية والإلكترونية الحديثة كان التخلف ظاهراً، إذ دأب العاملون في المكتبات على اقتباس وتطبيق ما كان يتم إنتاجه من نظم في الغرب على المكتبات العربية، بينما عانت الإسهامات العربية في هذا المجال من الندرة، ربما باستثناء ما جاء به من المملكة العربية السعودية، الأستاذ ناصر السويدان، والمتعلق برؤوس الموضوعات حيث أسس أسلوباً موحداً لتبويب الكتب العربية.

وقد أصبح هذا الشعور بالتخلف والقصور أشد وطأة وقسوة في الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي عند إدخال أنظمة المعلوماتية الإلكترونية الحديثة، فقد أيقن صناع المعلومة العربية أن هذه الأنظمة تختلف اختلافاً جذرياً عن سابقاتها التقليدية وتتصل بالعقلية والسلوك والعلاقات الاجتماعية، أي أنها تتصل بما هو خارج طاقاتهم وإمكانياتهم على التغيير.

ففيما يختص بالمكتبات، فإن أنظمة المعلوماتية هي مجموعة من الوظائف المتعددة الاختصاصات، المتداخلة والمترابطة فيما بينها بشكل تسلسلي حيناً ومتواز أحياناً أخرى. إطارها برنامج إليكتروني يتوخى تخزين المعلومات والقيام بعمليات متنوعة ذاتية الحركة لتسهيل عملية الوصول إلى المعارف وإدارتها.

وبما أن هذه الوظائف تتعلق باختصاصات متنوعة وكثيرة كعلم الكومبيوتر والمطبوعات والمعلوماتية على أنواعها وعلم المكتبات التقليدي والخطط المنطقية والإحصاءات، بالإضافة إلى الثقافة العامة القادرة على فهم مختلف الموضوعات وعلاقة بعضها ببعض وبعلم المشتريات والاقتصاد والمحاسبة، فإن الفريق المثالي لإدارة وتشغيل هذه الأنظمة إنما يكون بشخص واحد قادر على القيام بكل هذه الاختصاصات. وبما أن ذلك متعذر الوجود، وجب أن يكون هناك فريق من العاملين متجانس ومتعاون يقوم مقام هذا الفرد الواحد.

والحال أن هذه الأنظمة المعلوماتية هي أحد رموز الحضارة والثقافة الغربية، بل إنها تمثل العصارة الفكرية والعلمية لعقود من الأبحاث والتجارب والمؤتمرات والمنشورات التي كانت تتدفق كالطوفان في كثير من هذه المجالات. إن هذا الفريق العامل هو نفسه، رغم أن نشوءه سابق لذلك، أحد الظواهر الأساس لهذه الإفرازات الحديثة، بل إن هذا الفريق يُختزل بالخصائص الكثيرة التي يتمتع بها في كثير من المجالات، ابتداء من الإدارة الحديثة وانتهاء بعلم النفس الفردي والاجتماعي، الحضارة المعاصرة. فمن السمات الأساسية، التي يتمتع بها هذا الفريق المفهوم الحديث للتراتبية، التي أصبحت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعرفة وأصبحت أيضاً شديدة الحركة وقابلة للتغير. كما يمتلك هذا الفريق خصائص التعلم في العمل والتعلم المستمر والاعتماد على الإبداع الفردي والجماعي أكثر من اعتماده على تطبيق قواعد أوقوانين سابقة وجاهزة.

والاعتقاد السائد على نطاق واسع عندنا، حتى بين المشتغلين بالمكتبات والمعلوماتية، أن هذه الأنظمة هي نوع من الأولويات الجاهزة التي لا تتطلب سوى تحريك فأرة الكومبيوتر وهو اعتقاد خاطئ، فهذه الأنظمة ليست سلعة كباقي السلع التي اعتدنا على استيرادها، والتي يمكننا استعمالها دون معرفة تفاصيل بنيانها الداخلي. يجب على الفريق العامل أن يستوعب تركيب هذه الأنظمة الداخلية استيعاباً عميقاً بحيث يشعر بأنه هو نفسه من أنتج هذه النظم، فالمستهلك هنا يتماهى مع المنتج.

ربما كانت ظاهرة التماهي هذه من أهم ظواهر عصر المعلوماتية وإدارة المعارف. العولمة من جانب آخر لم تلغ المسافات الجغرافية فحسب، بل ألغت أوتلغي الفارق الكبير بين المنتج والمستهلك وإذا لم نتمكن من أن نأخذ مكاناً في هذه المعادلة، ربما أصبحنا خارج الحضارة. هذا في حين أن «المعرفة» عندنا بكل أسف مرتبطة بالمنصب أوالمركز أوالشهادة. والشهادة أصبحت بمثابة مادة من مواد التحنيط التي تعيق صاحبها عن التعلم المستمر وعن الإبداع وتحول دون تعاون صاحبها مع فريق العمل.

باختصار شديد، لقد فشلنا في تشكيل فريق عمل، فمحاولة تشغيل هذه الأنظمة بالعقلية والعلاقات الاجتماعية السائدة التي تُغلب - في أحيان كثيرة - اعتبارات معينة على اعتبارات العلم والمستوى المهني والثقافي والشعور بالمسؤولية الاجتماعية، ابتداء من أوقات الدوام وانتهاء بتغليب المصلحة الخاصة على نتائج العمل على صعيد المؤسسة والمجتمع، كل ذلك أدى إلى أوضاع مأساوية في مكتبات أهم المراكز الثقافية والتعليم العالي في منطقتنا العربية وأكثرها عراقة.

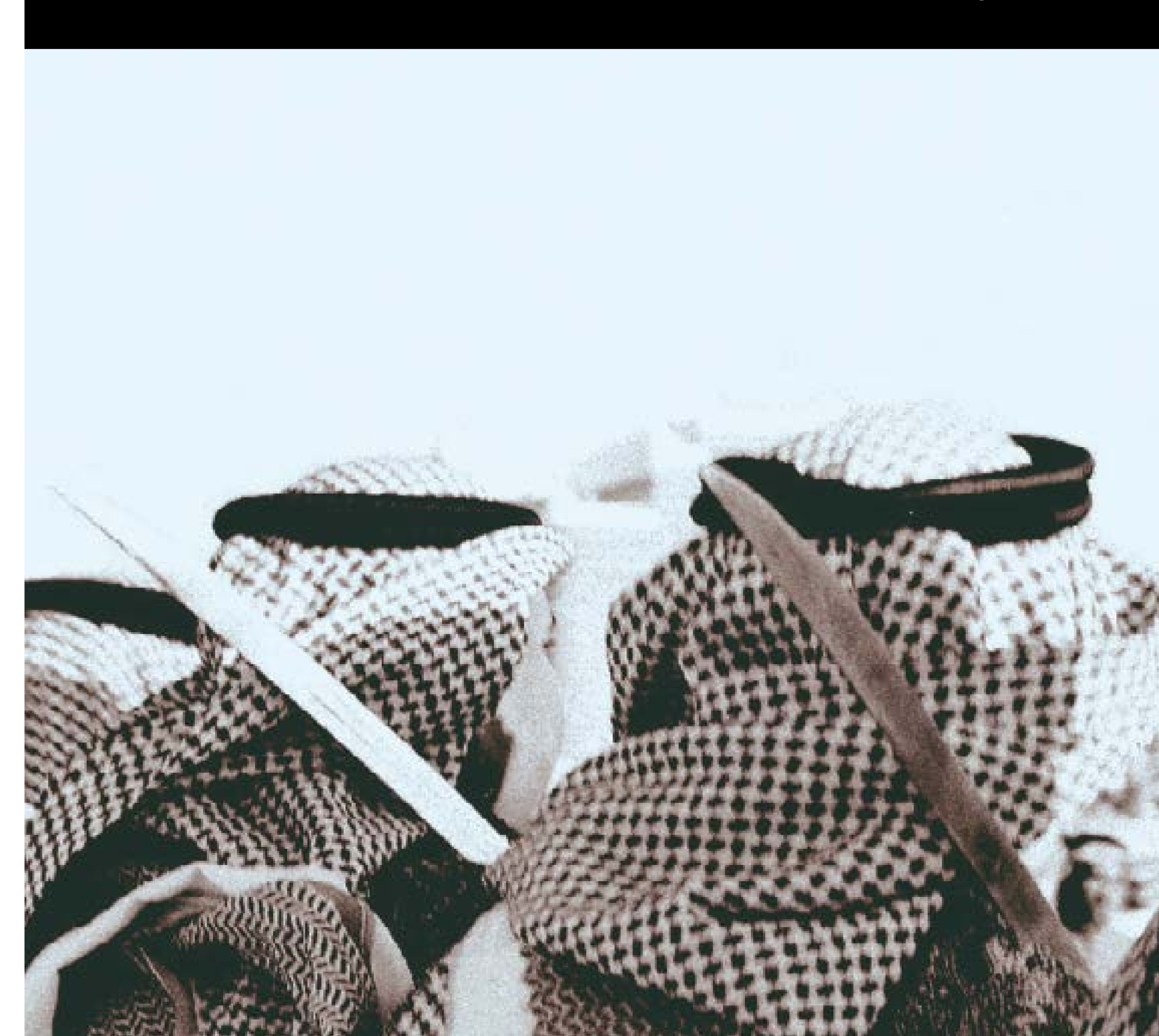
أمين نجيب - أخصائي علم المكتبات

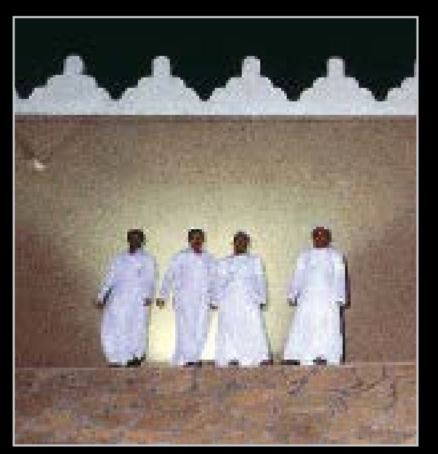
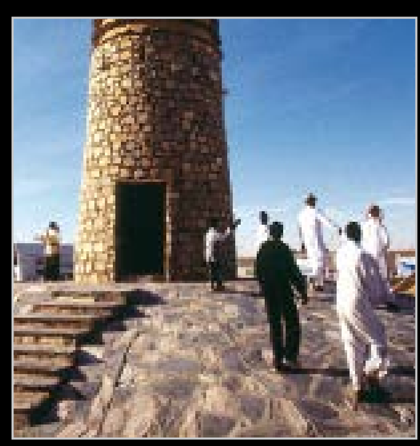
جنادرية 18 احتفال واحتفاء ..

تحتفل المملكة العربية السعودية كل عام بمهرجانها الوطني للتراث والثقافة على أرض الجنادرية قرب مدينة الرياض. وفي هذا العام استقبلت جنادرية 18 أعداداً متزايدة من الزوار الذين توافدوا عليها من مختلف مناطق المملكة، وضيوفاً من الوطن العربي والعالم شاركوا بفعالياتها الثقافية المختلفة.

كما احتفت بواحد من الذين أبدعوا في تصويرها في مواسمها السابقة: صالح العزاز، الذي نظم المهرجان معرضا تذكارياً لصوره الفوتوغرافية.

القافلة تنشر هنا صورا التقطت في جنادرية هذا العام، وتستضيف في هذا الملف إحدى لوحات الراحل الرائد، صالح العزاز، يرحمه الله.

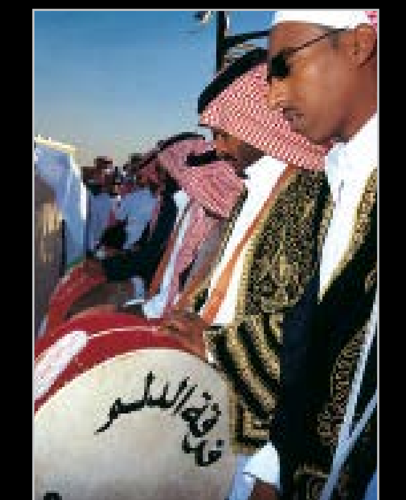










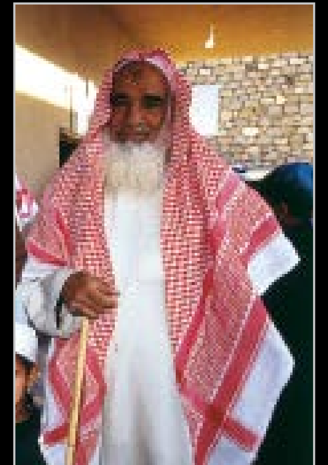














انظروا إليها .. بحسٍّ حر

يبحث الناس عن أعمال فنية لمنازلهم ولغرف جلوسهم وطعامهم، لكن قلة منهم يمتلكون الشجاعة الكافية لارتياد صالة للرسم - الجاليري - وإتخاذ قرار اقتناء لوحة ودفع ثمنها.

فلماذا يتردد الناس أمام هذه الدعوة المجانية لنزهة بين أعمال الفن الجميلة ؟ ولماذا نجد الكثيرين منهم حائرين في أمر اللوحة التي يرغبون في امتلاكها ثم يلجؤون إلى صديق "عارف" لنجدتهم من حيرتهم في فن ليس كباقي الفنون، الشعر أو الموسيقى أو غيرهما.

لقد تعرض فن اللوحة، إذا جازت التسمية، في العصر الحديث إلى تقلب مفاجئ جعل بينه وبين الناس مسافة. وأسهم في هذه الإشكالية طرفان: جاليريات الرسم وتجاره من جهة، وتيارات الفن المعاصر والفنانون من جهة أخرى. أما صالات العرض وتجاره فقد أسروا الفن ضمن أجواء مخصصة للصفوة المقتدرة. وأصبحت صالة الفن (الجاليري) حكراً على هذه الصفوة لا يتجرأ على دخولها سوى من في محفظته ما يكفي لاقتناء لوحات مبالغ بأسعارها. وكم من مار بريء يقف أمام الجاليري الأنيق يتفحص اللوحات المعلقة عن بعد ثم يكمل طريقه مسرعاً.

أما الفن المعاصر فقد غيّر مفهوم اللوحة بسرعة شديدة وبمعزل عن الناس، وهذا ما جعلهم عاجزين عن مجاراتها، فاللوحة التي كانت في نظر الناس أشجاراً وزهوراً ووجوهاً جميلة أصبحت مجموعة من الأشكال الغامضة يصعب التعرف عليها. والمسافة تضاعفت حين طُرحت هذه اللوحة بأنها تحمل معاني بعيدة عن المتذوق: "أيها الواقف أمام لوحتي هل تفهم رسالتي، لا بل هل تفهم لغزي؟" هذا السؤال أصبح في نظر المشاهد أشبه بالامتحان الصعب وأبعد الناس عن اللوحات وألغازها. وبقدر ما خسر الناس في أن يكون لهم فن ، خسر الفن (فن اللوحة) في أن يكون له جمهور بالمعنى الحقيقي والواسع للكلمة. من هنا أصبحت الدعوة لمعرض لوحات في جاليري تحمل في طياتها تخوفين:



الأول: الظهور بمظهر من ليس لديه القدرة على التذوق وفهم الفن، والثاني: من ليس لديه الاستعداد للشراء !

لكن الفن بحاجة للناس والناس بحاجة للفن، والمطلوب شجاعة من الطرفين. وإذا كان الفنان يحتاج دائماً إلى الشجاعة الفنية للحكم على أعماله بحس سليم، فالمطلوب اليوم من الناس أيضاً امتلاك الشجاعة الفنية للنظر إلى اللوحة بحس حر كمجرد أشكال وألوان. ودخولها إلى النفس هو في النهاية المقياس الأول والأخير للاختيار، فاللوحات - واقعية كانت أم تجريدية - يجب أن تحاسب بالمنظار نفسه، أن تكون جذابة للنظر، تدفع إلى التأمل فيها وتشبع النفس والروح.

اتركوا اللوحة تدخل إلى النفس (أو لا تدخل) دون تحدي الفهم. الحكم على الفن للحس أولاً، للعين لا للعقل، وللتأمل لا للتحليل، وللبصر قبل البصيرة.

كميل حوّا

لا تعرف الأجيال الحديثة ماذا كان يعني الراديو لآبائهم وأجدادهم مطلع القرن الماضي. ولا يبدو الأمر مقنعاً حين يجادل أحد في شراء راديو أو يشير إلى موضوع في الإذاعة. وقد يستخف أبناء اليوم بجمهور الراديو ومحبيه.

هنا يستعيد فريق تحرير القافلة مزايا عصر الراديو وبرامجه.. وربما عودته الجديدة!

إلى المستمعين فقط

هذا صوت الراديو يحييكم

حين تكون العين في صحوتها الأولى تغالب النعاس تحت أجفان مغلقة، تكون الأذن في حالة صحو كامل، فتدفع اليد نحو جهاز الراديو الصغير المستلقي على الوسادة، لتبدأ رحلة السماع اليومية بأنغام الصباح الأولى، التي غالباً ما تختارها الإذاعات الناجحة من بين مقطوعات موسيقية هادئة، أو مقطوعات غنائية هادئة وقصيرة، بعيداً عن نماذج الغناء المطوّل أو الغناء الصاخب.

وتستمر رحلة الاستماع بعد ذلك داخل الحمام (إذا كنت عاشقاً للراديو) أو داخل سيارتك، إذا كنت متوجهاً إلى مركز عملك، فإما أن تتابع الاستماع إلى موسيقى وأغاني الصباح الهادئة السريعة الخفيفة، تماماً كوجبة الطعام الصباحية، أو تبحث بمؤشر المذياع عن نشرة إخبارية تضعك في دقائق قليلة أمام ما يحدث في العالم، القريب منك والبعيد.

ومع أن نشرة الأخبار التلفزيونية تتفوق بإسنادها الخبر إلى الصورة الملونة الواقعية المباشرة في معظم الأحيان، فإن ميزة النشرة الإخبارية الإذاعية، خاصة في لحظات ما قبل الظهر، أنها تضع أمامك المعلومات نفسها، ولكن بمزيد من الهدوء الذي يترك لخيالك تصور المشاهد التي تتحدث عنها الأخبار. لذلك يردد الخبراء كثيراً عبارة تؤكد أن لحظات المساء المبكر هي لحظات الذروة في المشاهدة التلفزيونية، لأنها اللحظات التي تتوج النشاط الإنساني اليومي، وتسبق لحظات الاسترخاء فيما قبل النوم. أما اللحظات الأخرى من النهار فما زال الراديو سيد الموقف فيها.

مادة الغناء والموسيقى، ما زالت في الراديو تستحوذ على رصيد يحتفظ به هواة متذوقون، فالأغنية التلفزيونية تعتمد الحركة والرقص والصخب والألوان والزركشة، مما أوجد تمايزاً حقيقياً بين الرصيد الغنائي والموسيقي الإذاعي، والرصيد المقابل في التلفزيون، حيث ما زالت الغلبة في القيمة والجودة للرصيد الإذاعي. غير أن من أكثر ما يشد الأذن إلى المذياع، ذلك الفن الذي ينفرد به الراديو، وهو فن التمثيليات الإذاعية، فهو فن تتركز كل مزاياه وكل صعوباته الكتابية والتمثيلية والإخراجية في نقطة واحدة هي حاسة السمع.

ومع أن ذلك يعد مصدر الصعوبة فيه، إلا أنه مصدر مزية خاصة لا تجدها إلا في التمثيليات الإذاعية، فلأن كاتب النص يتوجه بقلمه إلى الأذن وحدها، والممثل يتوجه بنبرات صوته إلى الأذن وحدها، والمخرج يتوجه بتحريك النص والممثل والمؤثرات الصوتية كلها باتجاه الأذن وحدها، فإن هذه الخصوصية تحرض في الكاتب ملكات خياله الفني كاملة، وتستنفر الممثل ليستخرج من أعماق أحاسيسه وأعماق نبراته الصوتية كل ما يستطيع أن يلوّن به النص، ويجسد كل أبعاده، من خلال منبع واحد هو الحنجرة، المتوجهة إلى مصب واحد هو الأذن. كل هذه الفنون الإذاعية تجعل الراديو أشبه بالكتاب، ولكنك تطالعه بالأذن لا بالعين، كما أن كل صفحة من صفحاته تنقلك إلى موضوع آخر وأفق آخر، مما يسهل عليك تقليب "الصفحات"، كلما أمر مزاجك بذلك، لا فرق بين أول الكتاب وآخره، بطريقة لا تنقطع المتعة معها بل تتواصل.

هناك سرٌّ ما، قد لا تكفي مقالات التحليل العلمي وحدها للكشف عنه، لعله سر جاذبية الأذن، الذي يغلب سر جاذبية العين. التلفزيون عندما يخاطب العين بالصورة الملونة المتحركة، عن أي حدث إخباري أو ثقافي أو ترفيهي، لا يترك للمشاهد مساحة ـ ولو ضيقة ـ لتسريح خياله ومشاعره الخاصة، ولكنه يكشف له عن كل شيء، بفضائحية كاملة (إذا صح التعبير) وبلا أي حرص على الخيال الخاص للمشاهد، وذوقه الخاص، وخلفياته الثقافية الخاصة، إضافة إلى أحاسيسه ومشاعره.

أما أذن المستمع المشدودة إلى جهاز الراديو، فتدخل مع ذلك الاختراع القديم، (الذي لم تتوقف أشكاله الجديدة عن التطور حتى أصبحت بحجم علبة الثقاب، ترافقك إلى الحمام وإلى الشارع ووسادة النوم)، تدخل الأذن مع هذا الجهاز القديم - الجديد في علاقة حميمة لم يستطع التلفزيون (مهما صغر حجمه) اقتحامها، ناهيك عن إلغائها. ولعل من المواقع السحرية النادرة لمتعة الاستماع إلى الراديو، السيارة، التي ينشدُّ فيها سمعك إلى محطات الإذاعة المختلفة، بينما يبقى بصرك سارحا فيما حولك من مشاهد متغيرة، يمارس مهمة التأمل، ومهمة الالتزام بشروط سلامة القيادة .

هذه العلاقة الحميمة ما زالت قادرة (برغم كل ما طرأ على فنون الإنتاج التلفزيوني من تطور) على أن



تأخذ خيال المستمع وأحاسيسه إلى مجالات ما زال التلفزيون عاجزاً عن ارتيادها، ولعله سيبقى من هذه المزايا للراديو:

- نشرة للأخبار يمكنك الاكتفاء بموجزها.

- أغنية قصيرة أو طويلة، أو مقطوعة موسيقية، يمكنك الاسترسال معها ما شاء لك مزاجك، والانتقال إلى غيرها بسلاسة وأنت مغمض العينين.

- نص أدبي مكتوب أو حوار في قضية تهمك متابعتهما متحرراً تماماً من كل ما يفرضه الإخراج التلفزيوني من إبهار، غالباً ما يشغلك عن الموضوع الأساس الذي ترغب التركيز في متابعته.

أنت مع الراديو سلطان زمانك، تتصل بالعالم عبر حاسة واحدة من حواسك: السمع الذي يصبح قناة تصلك بالعالم كله ولكنها تترك لك كل مشاعرك الداخلية وأحاسيسك وانفعالاتك الوجدانية، وخيالك. تترك كل ذلك ملكاً شخصياً لك لا يقتحمه عليك أحد، تصله أنت بما تشاء من بث إذاعي هادئ الصوت في غالب الأحيان، بل هامس النبرة إذا شئت (هذا مستحيل في التعامل مع التلفزيون) وتقطع الاتصال في أية لحظة تشاء وبهدوء ودون أي جهد أو انفعال، منتقلاً إلى اتصال آخر، أو مُخْلِداً إلى نوم بوسعك أن تتسلل إليه رويداً رويداً، وصوت الراديو يهدهد لحظات غفوك الأولى، ويغلفها بمشاعر الخدر اللذيذ، وقد يؤدي لك دور المنبه في صباح اليوم التالي، إذا لم تمتد إليه يدك، لإقفاله قبل النوم.

سكوت .. استماع .. شيء من التاريخ

الولايات المتحدة، مطلع القرن العشرين .. سدّد الجمهور المحتشد نظرات متجهمة لرجل يقف في قفص الاتهام، بينما دوّى الصوت الصاخب لممثل الادعاء وقد أمسك في يده بأنبوب زجاجي منتفخ محشو بالأسلاك: «سيدي القاضي .. حضرات المستشارين، لقد غرر هذا المتهم بعشرات الأشخاص الذين ساهموا معه في شركة لإنتاج جهاز (راديو) لنقل الموسيقى والصوت عبر الهواء.. إنني..»

هكذا وبحرارة تم استقبال أول صمام زجاجي سيكون له الفضل في انطلاقة البث الإذاعي وتحويله من مجرد نظريات وتجارب علماء إلى حقيقة مسموعة .. فالمحكمة على أي حال أدانت الرجل (دي فورست) وأقرت بإعادة أموال المساهمين الذين خدعهم.

بدأ الراديو مسيرته على حياء ولمعات من هنا وهناك لعلم الفيزياء. افترض ماكسويل نظرياً وجود الذبذبات التي تصدر عن أي توتر كهربائي مسافرة في الفضاء، وجرب هيرتز الفكرة على المحك في عام 1888م. ماركوني أرسل موجات الراديو عبر المحيط الأطلنطي ونقل الصوت من بريطانيا إلى أستراليا في عام 1924م .. و (دي فورست) أنشأ إذاعة. وفي العشرينيات نفسها ظهرت محطات الإذاعة.

في السنوات الأولى للإرسال الإذاعي كان من المألوف حتى في مدن عريقة مثل لندن ونيويورك أن ينتظر الناس وهم في كامل زينتهم بدء بث السهرات الموسيقية في المناسبات الاجتماعية ليستمتعوا بالرقص حيث دأبت المحطات على تقديم سهرات غنائية تمتد لساعات طويلة.

في غضون سنوات الحرب العالمية الثانية عرف الراديو الاستخدام الواسع في مجال الدعاية السياسية، وبالتدريج كسب الراديو أراضيَ جديدة بينما استمر تطوره التقني بعد اختراع «الترانزيستور» في معامل «بل» الأمريكية في أواخر الأربعينيات فأصبح الراديو أصغر حجماً وأكثر كفاءة وأقل استهلاكاً للطاقة. كان الراديو الترانزيستور أعجوبة تلك الأيام.لم يتوقف تطوره حتى بعد دخولنا عصر البث الرقمي..

بين الراديو والتلفزيون

العودة بقوة

راديو الإنترنت: يلتقط البث الإذاعي المباشر من الإنترنت كما يمكنه التقاط البث المحفوظ سابقاً على الشبكة

الراديو الفضائي يلتقط البث الإذاعي من الأقمار الصناعية ولأنه رقمي يتيح الفرصة لأكبر عدد من المحطات للبثّ بوضوح تام

- التلفزيون .. الجليس اللجوج

كم مرة يتنبه صاحب البيت وض
أن تبادل الحديث كان صعباً، بل م
مع الصخب والضوضاء الخ
الشاشة التي تشد حواسهم، فب
في نهاية الأمر إلى ضغط زر
وإطفاء التلفزيون .. ثم يعدلون
.. يتنفسون الصعداء ويستأنفون
وكم من الناس خفّض صوت الت
وترك صورته لإكمال عمل ما!
في الحالتين التلفزيون هو ا
اللجوج أبداً.

- مشاهدون ومستمعون

مع ظهور التلفزيون تحول الناس من مستمعين إلى مشاهدين، وتحولت برامج «ما يطلبه المستمعون» إلى «ما يطلبه المشاهدون»، واليوم يتبادلون الحديث عما شاهدوه أمس وليس عما سمعوه أمس من الراديو. جمهور التلفزيون جماعة وجمهور الراديو أفراد، لكن بقليل من البحث نكتشف وجود مستمعين للراديو في غفلة من الآخرين. إنهم مستمعون سرّيون، شكّل الراديو جزءاً مهماً من متعهم الحميمية الخاصة التي لا يفصحون عنها إلا بعد استجواب!.

- روتين الدوام التلفزيوني

المشهد يتكرر يومياً: الدخول إلى المنزل، الجلوس أمام التلفزيون بعد التزود ببعض المسليات، تستمر الجلسة التي لا تنتهي إلا بالنوم. ألم يدخل التلفزيون غرف النوم؟ ومع اتساع الاختيار يزداد هذا الروتين ضراوة، ملغياً كل اهتمام أو التفات إلى شأن آخر، فكم من عمل أو موعد تأجل وكم من متع خسرناها: تبادل الحديث، الألعاب المنزلية، شؤون البيت، القراءة، وما أدراك ما خسارة عادة القراءة!

- سمعاً ونظراً!

تكمن سطوة التلفزيون في أنه يشدّ النظر إلى جانب السمع، على العكس من الراديو الذي يشغل حاسة السمع فقط. ولسبب ما يبدو الراديو أقرب للقراءة من التلفزيون وكأن الاستماع يُدخل الأفكار إلى العقل والقلب بل كأن أحداً يقرأ عليك و أنت تتأمل! أخيراً ... ما بالك بالمكفوفين وضعاف البصر الذين لا سلطان لهم على التلفزيون...:؟!

- فضائيات ما قبل الفضائيات!

تفخر المحطات التلفزيونية بأنها تحولت إلى فضائيات، في حين أن المحطات الإذاعية فضائية منذ زمن بعيد. لسبب ما نرى المحطات التلفزيونية متشابهة في الأسلوب والمضمون، فقيرة في الابتكار، و هو ما لم تكن تواجهه المحطات الإذاعية التي كانت تحتفظ بشخصية أكثر خصوصية، ربما لأن فضاء اختياراتها أوسع وهي ليست مضطرة للحشو أو الاستعراض وحديثها ومحدثوها أكثر لباقة ودقة، وبرامجها جلسات أنس ممتعة حيث لا أضواء ولا حركة كاميرات أو جبال ديكور، ويمكن إعادة بث البرامج بسهولة ولو بعد سنين. لقد استمرت الإذاعات في تقديم جرعات ثقافية رفيعة بينما غرق التلفزيون في ساعات بث زائدة . وربما نستطيع تشبيه الأول بالتصوير الملون والثاني بالتصوير الأبيض والأسود، واليوم تعود صورة الأبيض والأسود لتحتل المكانة التي تستحق كصورة تتمتع برونق لم تستطع الصورة الملونة أن تحظى به!

- مع الراديو

يشكل الراديو صديقاً وفياً خفيف الظل تحصل معه على متعة بأقل كلفة .. بطاريات رخيصة .. مرونة في الموقع والحركة .. حيّز أقل وخيارات أكثر. كما كان الراديو يحتل مكاناً طبيعياً في البيت مغنياً ومطرباً أو متحدثاً لبقاً أو معلماً لطيفاً يقودك بلا كلل لعالم غني بالمعارف والمتع. والمستمع العريق يحتفظ دائماً بقائمة خاصة من البرامج والمحطات في أوقات مختارة. فالقاهرة مثلاً لسهرات الأغاني، و(هنا لندن) للأخبار والتحليلات، أما إذاعتي المحلية فهي لأخبار وبرامج بلادي المنوعة. وكثيراً ما عشق الناس مذيعين ومذيعات من أصواتهم .. بعضهم صدم عندما شاهدهم في التلفزيون أو التقاهم شخصياً و«الأذن تعشق قبل العين ..» !!



فجأة غدا العالم في نظر المدخِّن - الذي كان حتى الأمس القريب معتدّاً بنفسه - مجموعة أماكن غير متاحة للمدخنين! فجأة طُرد المدخن من المجتمع المدني.. وهذا ما دعا ماجد نعمة❖ لمشاركة فريق التحرير في رصد هذا التطور الذي يتحول إلى ظاهرة عامة في كل مكان.

سقوط المدخن من المجتمع المدني

كنتُ أتسكع في شوارع بوسطن، وهي واحدة من أكثر مدن أميركا تسامحاً، عندما استوقفني مشهد «شلّة» من أصحاب الياقات البيض وربطات العنق الأنيقة جالسين عند واجهة مدخل إحدى ناطحات السحاب، يسحبون - بحياء وحرج - بعض أنفاس سجائرهم، حاملين أوراقاً في أيديهم ينفضون فيها الرماد..!

ظننتُ في البداية أن الأمور قد انعكست وأن هؤلاء المديرين وكبار الموظفين قد أعلنوا الإضراب احتجاجاً على ظروف عملهم أو تناقص أرباح أسهمهم، غير أن الواقع كان أبسط من ذلك بكثير. لقد فقدوا «حق التدخين» في مكاتبهم، فاضطروا ـ صاغرين ـ إلى الهبوط عشرات الطوابق ونفث دخانهم في زاوية الطريق ...!!

هذا المنظر تراه أينما تجولت في أي ركن من أركان المدينة المعاصرة. لقد انقلبت الدنيا على المدخن بتسارع غريب واختفت صورته الأنيقة، سيداً من أسياد الاستمتاع، من الواجهة تماماً. حتى منظر منفضة السجائر التي تنبعث منها رائحة البقايا، لم يعد مقبولاً. أصبح المنظر منفّراً. كان المدخن في الماضي إذا ما دخل مقهى أو جلس لدى مضيف وأخرج علبة السجائر من جيبه يتوقع أن توضع المنفضة أمامه في الحال ودون تباطؤ، أما اليوم فيجهد قبل أن يحصل على واحدة بعد أن يستأذن لتدخين سيجارته.

في المطارات التي تتغاضى جزئياً عن المدخنين تراهم يتجمعون في زاوية مستورة قرب مقصف للقهوة، وعلى المدخن المرتبك أن يبتكر لنفسه مطفأة مؤقتة من علبة عصير أوكأس ورق في قاعه قليل من الماء.!

على متن الطائرة التي مرّ فيها المنع على مرحلتين، لا يكتفي قائد الطائرة في كلمة الترحيب بالمسافرين بالإشارة إلى أن «التدخين ممنوع» بتاتاً على متن الطائرة. بل يضيف: إن التدخين ممنوع في دورة المياه أيضاً! ويحذر (تحت طائلة الملاحقة القانونية) من العبث بأجهزة كشف التدخين الموجودة فيها، أي أن المدخن أصبح متهماً بأخلاقه حتى بالمخالفات الصغيرة دفاعاً عن فرصة التدخين.!

> ازداد شعور المدخِّن بالاضطهاد وكأنه يعاني مرضاً معدياً وزاد من هذا الشعور نشوء عدد من العيادات الطبية المتخصصة في معالجة المدخنين

تحت الحصار

ضاقت السبل بالمدخن... والمشكلة ليست فقط في التقلص المستمر للمساحة المسموح بها للمدخنين، بل أيضاً في ما يرافق هذا التقلص من ضغوط نفسية ومعنوية تكاد تصنف المدخن مواطناً غير مرغوب فيه، فبعدما كان تقديم السيجارة إلى الضيف علامة ترحيب به، حتى أنه كان في بيوت معظمنا صحون تحوي أنواعاً من التبغ، اختفى هذا الشكل من حسن الضيافة من دون أي شعور بالحرج. لا بل اختفى الحرج عن وجه المضيف وهو يبلغ ضيفه أنه لا يستطيع التدخين في منزله أو في سيارته ... الشعور بالحرج انتقل إلى المدخن نفسه، فإصراره على التدخين يكاد يعني أنه جاهل لا يقرأ، وإذا قرأ لا يفهم؟

المضطهدون الأوائل

حوالي العام 1600م عاد الغزاة الإسبان من أميركا بالسيجار. والكلمة مشتقة من كلمة SIKAR بلغة هنود المايا وتعني تدخين. راج السيجار في أماكن محدودة جداً في أوروبا، إلا أن قبول المدخنين الاجتماعي لم يكن سهلاً في البداية. ومنذ اكتشاف الآثار التحذيرية والإدمان الناجم من استهلاكه أصبح ينظر إليه بنوع من الريبة. وعلى عكس مايظن اليوم واجه المدخنون الاوائل بدورهم الكثير من الاضطهاد والعزل. وعلى سبيل المثال أيام السلطنة العثمانية أصدر السلطان مراد الرابع فرماناً يقضي بمعاقبة كل شخص يُلقى القبض عليه متلبساً بالجرم المشهود، بأن يتنشق التبغ من قناة الغليون بأنفه وبوضعه على ظهر حمار يجول به في شوارع اسطنبول. ولما وجد أن هذه العقوبات لم تكن رادعة بما فيه الكفاية، أمر بتدمير كل مقهى يدخنون فيه وإعدام المدخنين !!

وفي اليابان، كان يحكم على المدخنين بالعبودية. أما في موسكو القيصرية فكانت عقوبة المدخن ستين جلدة على قدميه.. ولكن التجار ومصنعي السيجار أوجدوا لزبائنهم بعض الواحات في الدويلات الأوروبية .. وبنهاية القرن الثامن عشر كان تدخين السيجار قد صار علامة رقي اجتماعي في بعض المدن الأوروبية، وبسبب ارتفاع ثمنه كان استهلاكه محصوراً بين الأثرياء فقط.

صناعة المتسولين..!

أما السيجارة فبدايتها ... مزرية. إذ يُعزى الفضل في اختراعها إلى المتسوّلين في أشبيلية، إسبانيا. إذ كان هؤلاء يجمعون البقايا من أعقاب السيجار، ويفتتونها ويلفونها في ورقة رقيقة، وأطلقوا على اختراعهم اسم (سيجاريلو) أي السيجارة الصغيرة.

وخلال الأزمة الاقتصادية التي عصفت بأوروبا عموماً وإسبانيا خصوصاً سنة 1873م وجد مصنّعو السيجار أنفسهم مجبرين على تسويق منتجاتهم إلى أصحاب القدرات المحدودة. فصاروا يبيعون التبغ المفروم مع ورق للفه. ومن إسبانيا انطلقت السيجارة إلى إيطاليا فالبرتغال، ثم روسيا والمشرق العربي.

منذ العشرينيات من القرن الماضي، صارت مبيعات السوق من السجائر تفوق مبيعاتها من السيجار. ونمت هذه الصناعة بمقاييس هائلة، وصارت من الموارد المالية الأساسية، ليس للشركات المنتجة لها فقط، بل أيضاً للحكومات التي شاركت بطرق مباشرة أو غير مباشرة بحصص متفاوتة من أرباحها أيضاً.

❖ باحث سوري يترأس في باريس مجلة Afrique-Asie

المُدخّن ... رجل على رجل ..!

وعلى مدى أكثر من ستين عاماً من القرن الماضي تحالف الإعلان التجاري مع انعدام الوعي الصحي في دفع السيجارة وتدخينها إلى مستويات لم يكن يحلم بها متسولو إشبيلية الذين اخترعوها.

فاللوحات الفنية التي وصلتنا من حقبة ما بين الحربين حفلت بصور المدخنين سواء كانوا في مقهى باريسي مثل لوحات جورج رووه، أو صورة صحافية ألمانية مثل صورة الصحافية سيلفيا فون هاردن التي رسمها أوتوديكس.

وطبع نجوم السينما مثل جيمس دين، جيمس بوند، كلارك غيبل همفري بوغارت، رشدي أباظة، فريد شوقي صورهم في أذهاننا والسيجارة بين شفتي كل منهم. وارتبط التدخين بكل أنواع المتع المحرمة منها والمحللة، وبالحب والسعادة والشقاوة والبطولة وتأمل المنظر الجميل، والتفكير والحلم ... والحرية. وكانت الحرية رفيق كل حالات الذروة: ذروة الاغتباط وذروة الاكتئاب، فصاحب الهم ينفث همه في الهواء، والسعيد ينفث من شفتين مبتسمتين وعيونه منسبلة. وكانت السيجارة رفيقة الفنان والشاعر والمفكر والمخرج السينمائي لا سيما في لحظات التركيز والإبداع.

تبارى كبار الفنانين في رسم ملصقات دعائية للسجائر، وفي إنتاج أفلام دعائية للتلفزيونات تدعونا إلى عالم السحر والأسطورة. وصار للتدخين آدابه وتقاليده الخاصة. مبسم توضع فيه السيجارة من العاج أو الفضة أو الذهب، إما للدلالة على ثراء هذا الرجل، أو أنوثة تلك السيدة. إضافة إلى ازدهار صناعة الولاعات الثمينة على اختلاف أشكالها وأنواعها وأحجامها ...!

ومنذ الستينيات الميلادية تفشت هذه الآفة بين الشبان من طلبة الجامعات خصوصاً، فكان التدخين بمثابة إعلان عن أن لهذا الطالب اهتماماً يفوق حدود الأكاديمية لتصل إلى مصير الإنسان والفن والثورة. والمراهقون، الذين لم يكونوا قد بلغوا سن النضج القانونية، وجدوا في التدخين سبيلاً للوصول مبكراً إلى الرجولة والنضج. بعبارة أخرى، كان هناك ألف سبب للتدخين وشيوعه، وما من سبب للامتناع عنه سوى ... الاقتصاد أحياناً.

كل جلسة اجتماعية كانت اجتماعاً لمدخنين،أمّا غير المدخن فيجلس باستحياء مفسراً شذوذه عن القاعدة بأسباب واهية. وكان يُنظرإلى غيرالمدخن دائماً على أنه ممن يتخلّون عن متع الدنيا وأبرزها إشعال سيجارة..!

ولكن عصر التدخين الذهبي بدأ يصدأ في الثمانينيات الميلادية. وكانت أول مظاهر المنع قد بدأت في القاعات العامة مثل قاعات المحاضرات والسينما والمسرح، حيث كان يسمح للمدخنين في مزاولة عادتهم خارج القاعة في الوقت الفاصل بين مراحل العرض.

في دنيا الإعلان كانت موازنات الإعلان للسجائر تزداد انتفاخاً وأصبحت من أكبر موازنات الإعلان وأكثرها إسالة للعاب شركات الإعلان. حملات الإعلان للسجائر كانت قد بدأت في الأربعينيات والخمسينيات بملصقات جميلة كلاسيكية: آنسات جميلات ينفثن دخان السيجارة بمتعة ودلال، وأخذت بالتنوع والتقدم مع كل عقد. ثم جاءت إعلانات تربط بين الرجولة والتدخين: البطل السينمائي، ورجل الأعمال الأنيق، وصاحب اليخت الوسيم والمفتول العضلات، وكانت ذروتها إعلان الكاوبوي الشهير الذي يغريك بالذهاب إلى حيث النكهة، وقد بدأ منذ أكثر من عقدين واستمر حتى الآن. وكانت شركات التبغ تجد دوماً سبباً لحملات إعلاناتها لتعطي هذه الحملات جاذبية وتحقق لها رواجاً. أصناف جديدة من السجائر، مذاق جديد بالنعناع أو غيره، فلتر جديد، طول أكثر، تنوّع في أحجام العلب و غيرها.

حتى سنوات قليلة استغلت شركات الإعلان وجوه المشاهير وعضلاتهم وأناقتهم، أما اليوم فإعلانات السجائر مرتبكة باهتة فاقدة لوهجها المعهود.









في السنوات الأخيرة بدت إعلانات السجائر مرتبكة ومصطنعة وأخذت تبحث عن شعارات جديدة لكن الهزال بدا عليها واضحاً. وقد زاد من طينها بلّة أنها في الأساس لم تعد مباحة إلا في أماكن وبلدان قليلة. ولو لوهلة كانت الشركات تحاول أن تستبق المنع الإعلاني بترويج بضائع أخرى تحمل شعاراتها وتذكر بها مثل الملابس الشبابية أو غيرها. ولكن حتى هذه المحاولات سرعان ما أخذت تتراجع وتندثر.

وبموازاة حملات الإعلان المستمرة بزخم لهذا النوع من السجائر أو ذاك، بدأت الأبحاث العلمية عن طبيعة التبغ ومضار تدخينه تتوالى تباعاً لتكشف أن هذه التسلية الممتعة هي في الواقع سم زعاف.!

من الترجي إلى الزجر..!!

«الرجاء عدم التدخين»، أو «لطفاً عدم التدخين»، ظهر هذا الرجاء أولاً في مطلع الثمانينيات في المستشفيات وبعض الأماكن المحدودة، ولكنه راح يتفشّى بسرعة. الولايات المتحدة منشأ التبغ وأكبر مصنّع له تأرجحت لوقت قصير بين مصالحها الاقتصادية المتحالفة مع مصالح شركات التبغ من جهة وبين ضغوط المكتشفات العلمية والطبية، ولكن بسرعة رجحت الكفة الأخيرة، لا سيما بعد التيقن من آثار التدخين السلبي، المدخنين من سجائر غيرهم.

وتوسعت بسرعة المساحة الخالية من التدخين لتطال المباني الحكومية والمطارات والمؤسسات العامة، والمطاعم وكل مكان فيه أي تجمع مهما كان نوعه. وخرجت هذه الظاهرة من الولايات المتحدة لتكتسح العالم بأسره، وإن كان ذلك بنسب متفاوتة، ولكنها في تصاعد مستمر، وبسرعة صارت تختفي اللوحات التي ترجو عدم التدخين لتحل محلها العبارة الصارمة «ممنوع التدخين»..!!

ازداد شعور المدخن بالاضطهاد وكأنه يعاني مرضاً معدياً وزاد من هذا الشعور نشوء عدد من العيادات الطبية المتخصصة في معالجة المدخنين. وفي المملكة العربية السعودية 25 عيادة من هذا النوع.

ماذا بقي للمدخن؟

يمكنه أن يدخن في الخارج، وهناك، حتى لو لم يرمقه أحد بأية نظرة لوم، لا بد وأن يشعر أنه صار ينتمي إلى شريحة مختلفة.. شريحة .. غير مقبولة في الداخل شريحة ساقطة من المجتمع المدني..!!



عندما يضحك الروس

قد يتعجب الكثيرون حينما يسمعون أن للشعب الروسي روحاً ساخرةً مرحة .. فلا أشكالهم - التي نراها في الصور - تبدو كذلك ولا معرفتنا البسيطة بالتاريخ الروسي تكشف عن هذا.. الحقيقة أن الشعب الروسي من أكثر شعوب العالم سخرية وفكاهة، ولعل الذين أتيحت لهم معرفة المجتمع هناك يدركون كم هي عظيمة هي النكتة الروسية، وكم هي عميقة روح الفكاهة لديهم. الزميل حسام عيتاني ❖ يفتح لنا دفتر الفكاهة الروسية ملقياً الضوء على الخلفية التي صنعت النكتة الروسية الساخرة مع مختارات متنوعة منها...

❖ إعلامي عربي درس وعاش لسنوات في روسيا

تدهشنا المفارقة فنضحك.. تأخذنا غرابة الفكرة إلى تخيل المحال وتصور ما لا يعقل، لكن مفاهيم المفارقات والخيال والمحال لا تعرف الثبات، فهي تتغيّر بتغيّر البيئات والثقافات والتاريخ.

فما كان ينتهي بالقهقهة لدى العرب في زمن مضى قد لا يرسم اليوم على وجوه المعاصرين ابتسامة صغيرة. والفارق قائم أيضا بين ما يراه قوم مضحكاً وما لا يرى فيه آخرون أي مسوغ للفكاهة. ولا عجب إذن في ألا يتفق البشر على تعريف واحد للمضحك، فطبيعة العلاقات والقيم الاجتماعية وغيرها كثير من المعطيات والعوامل تتفاوت وتتباين من شعب إلى آخر ومن إقليم إلى إقليم. وعند النظر إلى ما يطلق الضحكات عند الشعب الروسي لا نرى استثناء لهذه القواعد العامة. وللفكاهة في بلاد «الموسكوب» شروطها الخاصة وميزاتها. من هذه الميزات أن النكات الروسية غالباً ماتكون على شكل سلسلة تتناول موضوعاً معيناً، يطيب للمزاج أن يتناوله بالسخرية المرة، ومن النادر أن تكون منفردة .. أي أننا نجد على سبيل المثال «إذاعة أرمينيا» أو حيوانات مثل الدب والأرنب، أي مايشبه كليلة ودمنة في أدبنا العربي.

الأقليات، والثمالى من الأزواج، والفلاحون البسطاء، شكّلوا أهدافاً للنكتة الروسية

و يمكن تصنيف النكات الروسية إلى عدة مجموعات، فهناك النكات التي تتناول الأوضاع الاقتصادية، أوالسياسية، والنكات ذات الطابع الاجتماعي، وسلسلة النكات التي تتناول الأقليات العرقية التي تعيش على هامش المجتمع. و قبل الحديث عن كل مجموعة، يجدر بنا التركيز على أداء ما يسمى بـ«الروح الروسية» لدور مهم في رسم معالم حس الفكاهة لدى الروس، فقرون من الاضطرابات السياسية وآثارها الاجتماعية تركت بصمات واضحة في التركيبة النفسية السلوكية التي تعدّ الفكاهة مرآة يعكس فيها الفرد والجماعة قبول أو رفض متناقضات تحملها الحياة وتوالي الأيام.

على طريق الحداثة الأوروبية

الاحتلال المغولي لروسيا استمر أكثر من قرنين (من العام 1240م إلى العام 1480م)، خلافاً للمناطق الأخرى التي مرّ بها المغول مروراً سريعاً. ويعدّ هذا الاحتلال الضربة الشديدة الأولى التي تعرّض لها المجتمع الروسي الذي كان في ذلك الوقت يخطو خطواته الأولى نحو الوحدة والتجانس السياسي والثقافي.

وكان ثمن إنهاء الاحتلال المغولي باهظاً أعقبه قيام إمارة موسكو التي يعدّ «إيفان الرهيب» مؤسسها الفعلي وباني الدولة الروسية الموحدة الأولى على أسس من البطش والإرهاب والقمع الدموي. وفي مستهل القرن الثامن عشر الميلادي بدأت حقبة بطرس الأكبر الذي حاول وضع روسيا العملاقة على طريق الحداثة الأوروبية، وتطلبت محاولته فرض إجراءات قسرية لا تتواءم ومستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي المتأثر بعمق بالتقاليد الإقطاعية، وما يصطلح في الغرب على تسميته بـ«الاستبداد الآسيوي».

وقد تجددت محاولات التحديث في القرن التاسع عشر لا سيما في عهد القيصر ألكسندر الثالث، الذي دفع البلاد في اتجاه التصنيع، فعمّق - من دون أن يقصد ربما - أوجه التناقض بين الفئات الاجتماعية المختلفة من أرستوقراطية تعتمد على ريع الملكية الزراعية الواسعة، وبرجوازية صناعية ناشئة.

زامنت هذه المحاولات مساعي ألكسندر الثالث لتعميم القومية الروسية، فأسهم في بروز الاحتكاك بين القوميات المختلفة. هذه العوامل وغيرها (كالإفلاس السياسي وانتشار الفساد والبؤس الشديد بين العمال والفلاحين، وعجز الحكم القيصري عن الاستجابة لتحديات القرن العشرين)، حضّرت لثورة 1917م التي حملت الشيوعيين إلى الحكم ليجلبوا معهم أصنافاً جديدة من المعاناة للشعب الروسي، الذي لم يكن ذهوله أقل عندما انهار الاتحاد السوفياتي، فجاءت إلى صدارة الحياة السياسية والاقتصادية

فئة اجتماعية جمعت ثروتها من نشاط غير واضح بالنسبة للكثرة الساحقة التي نظرت بعين الريبة إلى «الروس الجدد».

وخلاصة هذه اللمحة المختصرة عن المحطات التاريخية الكبرى هي القول: إن الروح الروسية تختزن مقداراً هائلاً من الإحساس بالظلم والقهر، يظهر بخضوع لمشيئة القدر، لكنها لا تلبث أن تعبّر عن مكنوناتها فجأة عبر تطلعات وتصرفات متطرفة (إذا جاز القول) تارة من خلال الإفراط في احتساء الخمور، وطوراً من خلال ما يبدو عنفاً مجانياً لا يمكن تفسيره تجاه الآخر، وطوراً آخر من خلال اللجوء إلى الفكاهة والنكات للتعبير عن عدم الاقتناع، أو بالأحرى عن رفض المفارقات والتناقضات التي يعيشها الفرد والجماعة، و يكون تغييرها عسيراً وخارج المتناول في أكثر الأحيان.

تدعو الحياة أبناءها الى الابتسام، يوما لشدة الفرح وآخر لحدة المعاناة، لكننا نصر على التغلب على اللامعقول والعبث بضحكة من صميم القلب..!

النكتة الرفيقة

رافق كل مرحلة تاريخية تغييرٌ في التركيبة الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي تبدلٌ في أنماط السلوك المقبول والشائع، ودخول أشكال جديدة من العلاقات الاجتماعية والتصرف الذي كان عامة الروس يقفون منه مواقف متباينة من الترحيب والتساهل إلى الرفض والاستهجان. وكانت النكتة والطرفة رفيقاً دائماً لهذا التغيير..!

محاولات التحديث على النمط الأوروبي سلّطت الضوء على سذاجة الفلاح الروسي (الموجيك) الذي ربما يتمتّع بقدرة جسدية خارقة وتحمل للمشاق لا نظير لهما، وطيبة قلب نادرة، لكنه لا يفقه خفايا التعامل والتصرف الملائمين اجتماعياً أو ما يسمى (المانيير) و(الإتيكيت).

ويصعب الحديث عن الفكاهة عند الروس من دون المرور - ولو لماماً - بعملاق الكتابة الساخرة نيقولاي غوغول (1809م - 1825م) الذي تعد مؤلفاته مرجعاً في النقد الاجتماعي وفي كشف العلل المتفشية. وقد أسهمت رواياته وقصصه القصيرة كـ(المفتش العام) و(المعطف) و(الأنف) و(النفوس الميتة) وغيرها، في تكوين نظرة الروس إلى أنفسهم، وفي الوقت ذاته في رفع مستوى فهم العامل الخارجي لروسيا. وكشفت كتابات غوغول حقيقة الأزمة التي كان يعانيها مشروع الدولة الحديثة في روسيا إلى جانب تناول تفاهة الحالة الإنسانية عموماً، فوضع أمام قرائه المشكلات التي يواجهون في قالب من الدعابة والسخرية السوداء..!

وعند ظهور موجة تعميم الثقافة الروسية انتشرت بكثافة النكات التي تتناول أبناء القوميات الأخرى الذين يبدو أنهم يمثلون حالات نافرة وخارجة عن السياق الاجتماعي العام، كسكان أقصى الشمال الشوكتشي واليهود والجورجيين. وجعل أبناء شعوب وقوميات ومناطق أخرى موضوعاً للنكات من الأمور الشائعة في الكثير من الثقافات (الصعيدي في مصر والبلجيكي في فرنسا وغيرهما).

ومن النكات عن اليهود: أن تاجراً يهودياً سأل زميله ما حاصل ضرب خمسة بخمسة، فأجاب التاجر الآخر: هذا يتوقف على ما إذا كنا نبيع أو نشتري..!

وواحدة أخرى تقول: إن يهودياً كان على فراش الموت فتحلق أبناؤه من حوله يسألونه عن أمنيته الأخيرة، فطلب فنجان شاي سكّره وسط. ولما تعجب أبناؤه من هذا الطلب المتواضع فسّر لهم رغبته قائلاً: طيلة حياتي كنت أشرب الشاي من دون سكر في بيتنا كي أوفر ثمنه، وفي بيوت الناس كنت أشربه حلواً جداً كي أكسب السكر، ولهذا فإنني لم استمتع في حياتي بفنجان شاي..!

وفي الاتحاد السوفيتي السابق تعددت أنواع النكات التي تهزأ بمعالم الحياة الجديدة، وكانت أبرزها مظاهر التقشف وانتقاد الروسي لبعض المنغصات في حياته اليومية وأهمها فقدان المواد الغذائية من الأسواق.

ومن هذه النكات على سبيل المثال واحدة تقول: دخل أحدهم دكاناً للمواد الغذائية ونظر إلى الثلاجة فوجدها فارغة، وسأل: ألا يوجد عندكم لحم اليوم؟ فأجابته البائعة: نحن لا يوجد عندنا سمك. لا يوجد لحم في الدكان المقابل!

وذهب أحدهم لتقديم طلب اقتناء سيارة، وبحسب العادة يسجل اسمه بالدور لموعد لاحق، فأبلغه المسؤول أن موعد استلام السيارة سيكون بعد عشر سنوات، فسأل الرجل: قبل الظهر أم بعده؟ فصاح المسؤول: أقول لك بعد عشر سنوات وتسأل قبل الظهر أو بعد الظهر؟ فأجاب الرجل: لأن السبّاك سيدي موعده بعد الظهر!

قرنان من الاحتلال ثم قرون من البطش والتناقضات الصاخبة ... فماذا يبقى غير السخرية؟!

ونجد نكاتاً روسية تتناول أكثر من جانب من جوانب معاناة الروس دفعة واحدة، مثل نكتة تعبر عن وجود مشكلة وعدم القدرة على إعلانها. ومنها أنه خلال التعتيم الرسمي على كارثة تشيرنوبيل النووية، نشر أحد المواطنين إعلاناً في صحيفة يقول: «مواطن يسكن على بعد 50 كلم من تشيرنوبيل، في بيت مؤلف من ثلاث غرف ومطبخ، مستعد لإبدال منزله بمنزل مماثل في أي مكان في العالم باستثناء ناغازاكي وهيروشيما».

ولمناسبة الحديث عن التعتيم الإعلامي، نشير إلى أن أكبر صحيفتين روسيتين هما البرافدا (ومعناها الحقيقة) والأزفستيا (الأخبار). فظهرت نكتة تقول: ما الفرق بين البرافدا والأزفستيا؟ والجواب هو أنه لايوجد أزفيستيا في البرافدا، ولا برافدا في الأزفستيا.

والواقع أن الكثير من النكات الروسية، مهما نجحت في إضحاك المستمع، تخبئ في طياتها لمسات تشاؤم وحزن متفاوتة في وضوحها. ومن هذه النكات «السوداوية» بشكل واضح واحدة تقول إن حريقاً شبّ في الدور الثاني من أحد المباني، وأطلت امرأة تحمل طفلهاالرضيع من النافذة وهي تصرخ مستغيثة من النيران، فهتف شاب من بين المتفرجين في الشارع طالباً من المرأة أن تلقي إليه الولد، مؤكداً أنه سيتلقفه بذراعيه لأنه حارس مرمى، فرمت المرأة بطفلها، وتلقفه الرياضي الشاب. ولما راح حشد المتفرجين يصفق فرحاً بإنقاذ الطفل، ما كان من حارس المرمى وحسب عادته إلا أن قذف بالطفل إلى الأمام، ثم ركله بعيداً.. نحو منتصف الملعب.

ومن النكات الروسية أيضاً ما يطال النخب المثقفة. ومما يُروى في هذا المجال يعود إلى عصر ازدهار السوريالية في الرسم والشعر خلال النصف الأول من القرن العشرين. ومثال النكتة السوريالية كالتالي:
سؤال: ما الفرق بين القطة..؟ الجواب: الفرق بين القطة أن قدميها الأماميتين متشابهتين، وخاصة اليسرى.!

وتحتل النكات عن الثمالى مكاناً واضحاً في الفكاهة الروسية جرّاء تفشي هذه الآفة الاجتماعية على نطاق واسع. ومنها أن اثنين من الثمالى ترنّحا في الشارع حتى سقطا أرضاً. فتساءل أحدهما بعد حين ولا زالا مستلقيان أرضاً: هل نستمر في الشراب أم نذهب إلى البيت؟ فأجابه زميله بعد تفكير: إذا استطعنا أن ننهض نستمر في الشرب، وإذا لم نستطع أن ننهض، نذهب إلى البيت.!

ويوفر اليوم «الروس الجدد» معيناً لا ينضب للنكات التي تتناول تبذيرهم الجنوني للمال في الداخل والخارج فيما يعاني الملايين من الفقر المدقع. ومنها أن روسياً جديداً التقى صدفة بمديره السابق أثناء العهد السوفياتي فسأله هذا الأخير: كيف حالك يا فاسيا؟ أجاب الروسي الجديد: لقد سئمت هذه الحياة. سئمت من جزر الباهاما والمطاعم الفرنسية الفاخرة.. نمط الحياة هذا ينهكني. وماذا عنك؟ رد المدير السابق بحسرة: آه لو تدري. لم أتناول طعاماً منذ ثلاثة أيام. نظر الروسي الجديد إلى الرجل التعيس ثم قال بثقة: أجل، أعاني أحيانا من هذه المشكلة، لكن عليك أن تجبر نفسك على تناول الطعام يا صديقي.

الصورة: من وكالة نوفوستي

ديوان الأمس ديوان اليوم

نخلة

محمد العلي*

هاهو القلب
منذ انفردتِ بهِ
يستجيرُ بظللكِ..

إن امتدادكِ في الصّحوِ
يُشعرهُ بالشموس القريبة
يلهمُه لغة الرفضِ
أنشودة القافلةْ:

لاشيءبين اثنتين:
العدالة والمشنقة.

وكان اختياراً فريداً
لجمر النداءاتِ
في البرعم الغضّ
ألاّ حياة بلا قافلةْ

إن امتدادكِ في الصّحوِ
يُنبت فيَّ اليقينَ
بأنّ الذي حاصر الضوءَ
يفقأ عينيهِ
وأن النباحَ الذي يملأ الأفق
سوف يفتش عن مخبأ
لن يراهْ.



إن امتدادك في الصّحوِ
بابٌ إلى رؤية النهر
ذاك الذي يتدفقُ
من تعب الكائنات
ليجرفَ كلَّ الغُثاء الذي دنّس الأرض.

إن امتدادكِ في الصّحوِ يزرعُ أجنحةً غيرَ مرئيةٍ
في الدماء
و يُودع في كلّ رأسٍ حديقةْ..
وجمراً نقياً بكل إرادةْ
و يُعلي الأناشيد
فوق شفاه الأملْ

إن امتدادك في الصّحوِ
يرضعنيَ
مرةً
ثانيةْ..!!

* الكاتب السعودي المعروف وأحد روّاد الشعر العربي المعاصر

رضى يطلب المحال..!

الحب أبد الدهر، البقاء على العهد، غدْر الواشين، اليأس من اللقاء، الارتحال، البكاء، الحسرة.. حتى الجنون مصير شاعر الحب العذري.. هنا تختار نجاح طلعت من بستان الشعر أبياتاً لشعراء مختلفين يوحّد بينهم هذا الرضى بالمحال!

لقد سما الشاعر العذري العاشق بمحبوبته عن عالم المكان والزمان، وجعل ليلاه في عالم لا يدرك، غير أنه وهو في العالم الأرضي باق على العهد يتحمل حسرة البعد وغدر الواشين ولوعة الجوى.. سحابة ليس كالسحابة، هجر وليس كالهجر، سحر وليس كالسحر.

إنه لعجيب أن يرضى الشاعر بالفراق ويقبل بالهجر إلى ما لا نهاية... أو يرضى باللقاء في الأحلام، وبالآمال المخيّبة والفرح بما لا ينال... وإنه لطلب محال أن يطلب الشاعر من محبوبته أن تكون سحراً لا شفاء منه، وتكون أحياناً أخرى غمامةً زائلة، أو تكون طيفاً من أطياف الكرى.

لقد أنعم الشعراء العذريون على الشعر العربي بأبيات تمس أوتار القلوب وتترك عليها نغماتها بصمات. هذه عزة كثيّر كالسحابة الممطرة لا يصيبه مطرها، لأنها لا تمطر إلا بعدما تتجاوزه!. وهذه ليلى أضافت إلى مفهوم الهجر بعداً آخر.. وجعلت الهجر يتخطى الحدود التي يصلها عادةً! أمّا بثينة فقد حملت جميلاً على الرِضى بإجابتها بـ"لا "، وبـ "لن أستطيع"!. ولو ألقت ليلى الأخيلية على تَوّبة السلام وكان هو في قبره لردَّ سلامها ببشاشةِ المحب، وهذا قيس بن ذريح يَهوى النوم لأنه يأمل أن تراوده حبيبته في حلُمه! وذاك قيس بن الملوح مستسلم لبَلواه ...
فهي قضاؤه وقدره!

يقول **كثيّر**:

وإنـي وتَـهْـيامـي بـعـزّةَ بـعـدما
تـخـلّـيـتُ مـمـا بـيـنـنـا وتـخـلَّـتِ
لكالْمرتجي ظلَّ الغمامة كلما
تبوَّأ مـنـهـا لـلمَـقـيـل اضْمحَلَّتِ
كـأنـي وإيـاهـا سـحـابـة مـمـحـل
رجاها فـلـمَّـا جـاَوَزَتْـهُ اسْـتَـهَـلّـتِ

ويقول **أبو صخر الهذلي**:

فَيا هَجْرَ ليلى قدْ بلغْتَ بي المَدى
وزدْتَ علَى ما ليس يَبْلُغُه الهَجرُ
ويـا حُبّـهـا زدْني جـوىً كـلَّ لـيـلـةٍ
ويـاسَلْوَةَ الأيام موعدُك الحشْرُ
ويـا حـبـذا الأحـيـاءُ مـادُمت حـيـةً
ويا حبّذا الأمواتُ مَاضمّكِ القبرُ

أما **جميل بن معمر** فيقول:

وإنـي لأرضـى فـي بـثـيـنـة بـالـذي
لـوَ ابْصرهُ الـواشي لقّرت بلابلُهْ
و«لا»، وبأن «لا أستطيع»، وبا لمنى
وبـالأمـل الـمـرجـوّ قد خاب آمِلُهْ
وبالنّظرة العجلى، وبالحولِ ينْقضي
أواخـرهُ لا تـلـتـقـي وأوائِـلُـهْ

ويقول **الصِمّة القُشيري**:

فإنْ كنتمُ تَرجون أن يذهبَ الهوى
يـقـيـناً وَنَـرْوى بـالـشـراب فـنـنـقـعـا
فردّوا هبوبَ الرّيح أو غيّروا الجوى
إذا خَـلَّ ألـواذ الـحـشـا فَـتَـمـنّـعـا

ويقول **توْبة بن الحميّد**:

وَلَوْ أنَّ لـيـلـى الأخـيـلـيـةَ سلّـمـتْ
عَـلـيَّ ودونـي جـنـدلٌ وَصـفـائِـحُ
لسَلَّمْتُ تَسْليمَ البشاشةِ أو زَقا
إليها صدًى من جانب القبر صَائِحُ
وأُغـبـط فـيْ لـيـلـى بـمـا لا أنَـالُـه
ألا كـلُّ مـا قَـرّتْ بـه الـعـيـنُ صَالِحُ

ويقول **قيس بن ذريح**:

وإني لأهوى النومَ في غير حينه
لـعـلَّ لـقـاءً فـي الَـمـنـام يـكـونُ
تـحـدِّثـنـي الأحـلامُ إنـي أراكُـمُ
فـيـا لَـيْـتَ أحلام الـمـنـام يَـقـيـنُ

وهذا **قيس بن الملوّح** يقول:

خـلـيـليّ لا والـلـه لا أمـلـك الـذي
قضى الله في ليلى ولا ما قَضَى ليا
قَضَاها لغيري وابتلاني بحبّها
فَهلاّ بشيء غير ليلى ابتلانيا
هي السّحرُ إلاَّ أنَّ للسحر رُقيـــةً
وإنـيَ لا أُلـفـي لـهـا الـدهـرَ راقـيـا



أحمد آل مبارك .. عاد منكسراً من بغداد وعاش بجنيهين في القاهرة

تجربة ثرية على مشارف الدبلوماسية السعودية

يعد الشيخ أحمد آل مبارك شاهداً على البدايات الأولى للدبلوماسية السعودية، نظراً للوظائف التي شغلها في السلك الدبلوماسي السعودي، في مراحل تكوينه الأولى. وحين استوقفه الزميل حبيب محمود من فريق التحرير لتسجيل شهاداته، وجد فيه ذاكرة حذرة وأمانة على أسرار المسؤولية التي تحمّلها أربعين سنة من عمره الذي قارب التسعين، وحفل، إلى جانب الدبلوماسية، بريادة في مجال الأدب.

حظي الشيخ أحمد آل مبارك بالتكريم اللائق، بتقليده وسام الملك عبدالعزيز من الدرجة الأولى، على يد صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، ولي العهد، نائب رئيس مجلس الوزراء، رئيس الحرس الوطني، باعتباره الشخصية الثقافية في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الثامن عشر (جنادرية 18). وقد جاء هذا التكريم تقديراً «لجهوده الملموسة في العملين الدبلوماسي والثقافي ولدوره في خدمة المملكة العربية السعودية».

وفي هذا التكريم مغزىً، يتلخص في أن الدولة، والحديث للشيخ آل مبارك،: «تريد أن تُشعر كل شخص بذل جهداً أن لجهده تقديراً ومكانة ومكافأة، فيقتدي به الشباب الآخرون ويجدّون مثل جدّه أو أكثر.. وبهذا تتقدم البلاد وتتطور». وفي سجلّ حياة الشيخ جِدٌّ وجهود تشهد بها ملامح المهابة الأنيقة المرسومة في وجه هذا الشيخ الثمانيني الذي جاب بلاد الدنيا، ثم عاد أخيراً إلى حضن أمه: الأحساء..!

وقد خاطب (القافلة)، بلسانين متشابهين: أحدهما لسانه العربي الممتلئ بشواهد الأدب، بدءاً من الأراجيز وانتهاءً بالمقامات.. مروراً بعيون الشعر طبعاً..! واللسان الآخر هو كتابه (رحلة الأمل والألم) الصادر مؤخراً في 344 صفحة، وهو يحمل القسمات ذاتها، والإيماءات نفسها، وأيضاً الذاكرة العائدة إلى زمن العقاد، وطه حسين، وأحمد حسن الزيات، وخير الدين الزركلي، وأحمد العدواني.. وغيرهم وغيرهم..!

بيئة خاصة..!

تشير الذاكرة إلى أن تمرداً ما حرّضه على الهروب والبحث عن ضالة لم تكن موجودة في الأحساء، إبّان مراهقة الشاب أحمد، فقد نشأ في أسرة توارثت العلوم الدينية أباً عن جد. وهو يصف تلك المرحلة: «كنت في بيئة مغلقة لا علاقة لها بالتطور الحديث إلا بقدر يسير جداً، تمثل ـ هذا القدر ـ في الأشخاص الأثرياء الذين يقومون بزيارات للبلدان المتطورة، وهؤلاء قلة في المجتمع». يضيف: «وكان أبناء القصيبي والعجاجي يحصلون على الصحف التي كانت تصدر من مصر والعراق ولبنان، ومن خلال هذه الصحف تَفتّحت عينايَ على ثقافة لم تكن موجودة في بيئتي.. كان ذلك في مرحلة مبكرة جداً.. لم تكن هناك مدارس كما هو الحال اليوم».

وأثارت مصادر الثقافة الحديثة في نفس الفتى أسئلة وأسئلة: «لماذا لا يجمع الإنسان العلوم العربية والدينية إلى جانب العلوم العصرية؟ هل هناك ما يمنع؟ كيف السبيل؟». وحين أعرب عن هذه التساؤلات لبعض أقرانه وجدهم يرون في العلوم العصرية سبباً «للتهاون بالواجبات، والصلاة، والصيام، وقد تؤدي إلى أفكار يتحقق معها المروق من الدين».!! وهنا بدأت مفردات التمرد على الرأي السائد تُكتب في سطور حياته.. ولكن كيف..؟؟

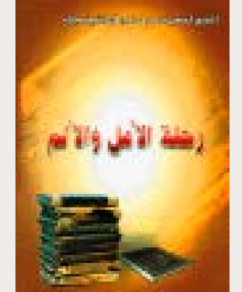
الفتى الهارب

لا بدّ من الخروج من الأحساء.. ولا بدّ لهذا الخروج/ الهروب من إذن من الوالد.. ولا بدّ للإذن من ذريعة مقبولة. وتبع الفتى والده في أحد عشاءات صيف 1354هـ؛ وطلب الإذن بالسفر إلى البحرين بغرض «الفرجة والتسلية» مؤكداً حاجته إلى الراحة بعد عناء الدروس على يد بعض مشايخ الأحساء. وقد صدر الإذن مشروطاً بمرافقة شقيقه الشيخ عبدالرحمن «الذي سوف يسافر بعد صرام النخيل». وهكذا كان، إذ سافرا إلى البحرين أياماً، ثم إلى قطر، ومنها إلى جزيرة (دلما)..! وفي صدفة مرضية، وجد فرصة للانفلات من قيد أخيه فسافر وحده إلى (أبو ظبي)، ونزل في ضيافة الشيخ خلف ابن عتيبة. وفي (أبو ظبي) تعرف إلى كهل إنجليزي مسلم يعمل في شركة (عبّادان) النفطية، اسمه (عبدالله فاضل وليمسن)، فأنس أحمد آل مبارك إلى عبدالله، وأطلعه على طموحاته العلمية، وأعلن عن رغبته في الدراسة في بغداد. كان هذا الإنجليزي قد أسلم وهو طالب في جامعة أكسفورد، بتأثير زملاء باكستانيين، ودرس اللغة العربية في بغداد والبصرة. فوعده بتقديم يد العون، ثم قذفت به المتاعب بين موانئ الخليج المتباعدة: في البحرين، والجبيل، والقطيف.. وأخيراً في الكويت متأبطاً طموحه وقلقه...!

> كان الإيطاليون يحضَرون لـ «العلمين» ووجهتني سفارتنا بترك مصر فربطتُ مصيري بمصير 16 مليون مصري..!

في ذلك الوقت، كان السفر إلى خارج البلاد يتطلب الحصول على (ورقة عبور) تقوم مقام جواز السفر اليوم. تصدر الورقة من إحدى إمارات الدولة ويتم تحديد وجهات السفر فيها بشكل صريح وحصري، وفي حال رغبة المسافر التوجه إلى دولة غير مدونة في الورقة، فإن عليه العودة إلى البلاد والحصول على ورقة أخرى..! وكانت مشكلة أحمد آل مبارك أنه يحمل (جواز سفر) يسمح له بالسفر إلى الكويت فقط. وحين حطت قدماه – ضيفاً – عند معتمد الملك عبدالعزيز في الكويت الحاج عبدالله النفيسي، كانت المعضلة الكبرى تتلخص في حصوله على وسيلة للحصول على تأشيرة دخول إلى البصرة، ولا يمكن الحصول على هذه التأشيرة إلا من القنصل البريطاني، وهذا الأخير لديه تحفظات عسيرة.. ووصل أحمد البصرة، والتقى صديقه البريطاني المسلم عبدالله فاضل وليمسن، ونزل في ضيافته. ولم تمض أيام إلا وهو في بغداد، عاصمة

رحلة الأمل والألم ..




ثم خرجنا من عند الأستاذ ملا صالح متجهين إلى مقر القنصل البريطاني، خارج مدينة الكويت... فقال لي: أنا مستعد أن أوصلك بالسيارة إلى باب القصر، ولكن هذا ليس من مصلحتك.. وتركني عند أسوار مدينة الكويت، فمشيت نحواً من عشرين دقيقة، بعد أن شكرته على عواطفه ودقة ملاحظته.. فوصلت إلى الباب، فوجدت بعض الكويتيين ينتظرون على دكك في دهليز مغطى، ولكن ليس له باب، فسألت الجالسين: كيف أسلّم الخطاب؟ قالوا: تبقى هنا وكل نصف ساعة يفتح الباب موظف يسلم الجوازات التي انتهت ويستلم الجديدة..

وانتظرت مع من ينتظر، ولما فُتح الباب، نهضت وسلمت الموظف الخطاب الذي معي، وبقيت منتظراً، وبعد مرور نحو من نصف ساعة فُتح الباب وطلب مني الدخول، قال لي: القنصل يريد أن يراك..!

هنا شعرت بالحرج الشديد، وظننت أن أمراً يُراد بي، وإلا فلماذا استدعاني من دون الآخرين؟ وقفز في ذهني ما كنا سمعنا به ونحن صغار: أن جماعة من زعماء البدو، فيهم فيصل الدويش وابن بجاد، هربوا من الملك عبدالعزيز ودخلوا العراق..!

من كتاب رحلة الأمل والألم للشيخ آل مبارك


عندما كان مستشاراً في السفارة السعودية بعمّان، برفقة زملاء في السلك الدبلوماسي

الرشيد، يرتب وضعه للدراسة في (دار العلوم العربية والدينية)، وحظي الطالب المقبول بلا قيد أو شرط ولا شهادة ابتدائية بالانخراط في المدرسة الإعدادية.

أتيت.. معتذراً..!

ولكن الأقدار وضعت حداً لهذه التسهيلات..! وتوفي مدير المدرسة الشيخ نعمان الأعظمي، وانتهى الأمر بأحمد المبارك إلى الخروج من المدرسة التي حلم بها سنوات. وهكذا استخلص من التجربة المرة أن مخالفته والده، وطلبه العلم من دون إذنه، وراء هذه النكسة المؤلمة. إذن لا بدّ من العودة إلى الأحساء.. والاعتذار من.. الوالد.. وهذا ما حدث..!! عاد إلى الأحساء منكسراً في رسالة اعتذارية طويلة قدمها لوالده، متأملاً فيها الصفح عما سلف. وطالباً الإذن مجدداً في السفر إلى مصر بغية الدراسة في الأزهر الشريف، والتماس الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ في إعطائه منحة دراسة. وتقبل الوالد الحاني الاعتذار وأذن بالسفر إلى القاهرة.. وبدأت رحلة أمل وألم جديدة في حياة الشيخ أحمد آل مبارك..!



آل مبارك في زيارة لإحدى مدارس المسلمين في غانا

آلام القاهرة

وقد بهرته القاهرة، أول ما وصلها، وقضى أياماً يتجول في معالمها. وحين زار شيخ الأزهر كان خير الدين الزركلي ـ رحمه الله ـ وسيط الزيارة، وكان وقتها مستشاراً للسفارة السعودية في مصر. وبعد الإجراءات التقليدية انخرط أحمد آل مبارك ذو الثمانية عشر ربيعاً في الدراسة.. كان ذلك أواخر عام 1937م.. ومثلما بهرته القاهرة، أذاقته طعم الجوع أيضاً. وعاش فيها معتمداً على جنيهين اثنين ينالهما رأس كل شهر، ثم وقعت الحرب العالمية الثانية، لتمطر على ظمأه مصائب، على حد تعبير المتنبي..!

يقول الشيخ آل مبارك: «أصبحت قوة الجنيه المصري الشرائية تتدنى يوماً بعد يوم، حتى وصلت في التدني إلى أن ما كانت قيمته قبل الحرب جنيهاً واحداً أصبح لا يمكن الحصول عليه إلا بخمسة جنيهات... ومعنى هذا أن الجنيهين اللذين هما كل دخلي شهرياً أصبحت قوتهما الشرائية لا تزيد على أربعين قرشاً..!»

وماذا أيضاً..؟ يقول: «بعد شهر من قيام الحرب العظمى قررت حكومتنا سحب بعثتها العلمية النظامية لعوامل أمنية واقتصادية، وإذا بي أتلقى إشعاراً من المفوضية بالحضور إلى مقرها للأهمية، وبعد مقابلة الموظف المختص أفادني بالأمر.. وأن المطلوب مني هو الاستعداد للسفر». وقتها كان أكثر من أربعين ألف جندي إيطالي يزحفون نحو مصر قادمين من ليبيا. ولم يكن أحمد آل مبارك ضمن البعثة النظامية، لكنه قد يخسر فرصة عمره العلمية لو عاد إلى البلاد مع العائدين.. وقد يخسر عمره لو بقي والإيطاليون يحضرون لمعركة (العلمين).. وبين الخسارتين قال آل مبارك لخير الدين الزركلي في مكتبه: «الذي يسع ستة عشر مليوناً من سكان القطر المصري سيسعني»..!

وما وسع الشيخ آل مبارك في تلك التجربة المريرة كثير. لم يكن الجنيهان يسدّان رمقه في زمن السلم فكيف في زمن الحرب..؟ صحبه صديق له يدرس في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة لاحقاً) إلى طبيب لمعرفة مشكلة الهزال الشديد الذي يبدو عليه.. وهناك اكتشف الصديق أن (أحمد) يعاني سوء التغذية..! وبطريقة غير مباشرة يجتمع خمسة من الأصدقاء ويقررون اقتطاع جزء من مكافآتهم الشهرية لصالح صديقهم، فيرفض العرض شكلاً ومضموناً. وفي يوم 22 رمضان 1362هـ قرأ أحمد المبارك برقية أنهت سنوات من الجوع والحاجة.. كانت موجهة من الملك عبدالعزيز، رحمه الله، إلى السفارة السعودية في القاهرة.. ومفادها: الموافقة على إلحاق أحمد آل مبارك بالبعثة الرسمية..!

فصول العمل

في عام 1371هـ عاد إلى الوطن متأبطاً ليسانس اللغة العربية وآدابها من الأزهر، ودبلوم التربية وعلم النفس من المعهد العالي بجامعة عين شمس. واتجه نحو مديرية المعارف بمكة المكرمة (وزارة المعارف لاحقاً)؛ وشغل وظيفة مفتش عام. ومن هذا الموقع انكشفت له صورة واقع التعليم في البلاد.. كانت أفضل المدارس في مكة المكرمة، لأنها بدأت قبل

الشيخ إبراهيم السليمان رئيس ديوان جلالة الملك عبدالعزيز يتوسط البعثة السعودية في القاهرة، ويبدو أحمد آل مبارك في إطار الصورة

غيرها. وقد استفادت الحجاز من موقعها وتدفق الحجاج عليها.. هذا الواقع السكاني فرض تلاقحاً في الثقافات، ولذلك تجد أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة يحرزون تقدماً باستمرار، وقد انعكس أثر ذلك على مدارسهم. وعلى الرغم من البدائية ؛ فإن «طلاب ذلك الزمان كانوا أذكياء.. كانوا يعتمدون على جهودهم الشخصية في التحصيل ولا يقصرون اهتمامهم بالمناهج الدراسية المقررة.. والعلم هو المطالعة.. العلم ليس بالشهادات.»


الشيخ آل مبارك في حفل مدرسي عام 1373هـ حين كان مديراً لتعليم جدة

وكشاهد على عصر التعليم، في المملكة، يهتم الشيخ آل مبارك بالدور الصعب الذي لعبته مديرية المعارف، ولاحقاً وزارة المعارف التي تأسست على يد خادم الحرمين الشريفين ، بوصفه أول (وزير للمعارف) في المملكة، فقد كانت تبعث بمفتشيها إلى شعاب الجبال، والقرى النائية، بحثاً عن الاحتياجات الفعلية للتعليم. ويتذكر الشيخ أن الوزراة، في بداية تأسيسها «أنشأت 270 مدرسة في عام واحد.. كان ذلك عام 1374هـ».

في وزارة الخارجية

بعد تأسيس الوزارة عمل الشيخ مديراً للتعليم في منطقة جدة. وفي عام 1375هـ انتقل إلى وزارة الخارجية مديراً للإدارة الثقافية والصحية فيها. وسرعان ما نُقل إلى سفارة المملكة في عمّان، ومنها إلى وظيفة (مستشار) في السفارة في الكويت. ثم عاد إلى ديوان الوزارة في إدارة النشر، ثم عيّن قنصلاً في البصرة، ثم عاد إلى الوزارة مدة عام، ليشغل منصب القائم بالأعمال في سفارتنا في غانا.. ومنها إلى دولة قطر سفيراً في أول استقلالها. يقول عن هذه السنوات: «كانت سنوات صعبة، أمضيتها وأسرتي في قلق متواصل من عدوى الملاريا والحمى الصفراء..! الحماية الوحيدة كانت توفرها حبة نتناولها يومياً للوقاية من الملاريا.. وتعودنا تناول هذه الحبة، حد الضجر من هذا الدواء الوقائي اليومي.. أتذكر أن نوعاً وقائياً آخر حصلنا عليه، هذا النوع كان أسبوعياً، وأتذكر الاستبشار الكبير الذي عاشه الوسط الدبلوماسي حين سمعنا بنبأ الحبة الأسبوعية»..!

وثمة ما يميز تلك السنوات الخمس غير الملاريا والحمى الصفراء، إنها العلاقات الودية التي تربط سفراء الدول العربية في غانا: «كانت علاقات دولنا تسوء في وقت من الأوقات.. مع ذلك، كنا نحافظ على علاقات أجمل من علاقات دولنا.. وكنا نجتمع كل أسبوعين مرة واحدة، فلما وقعت حرب 67 تحولت الاجتماعات إلى يومية، كانت الغربة سبباً في القرب على الرغم من اختلاف بعض الحكومات»!

السنوات الخمس كان لها إنجازها الذي يفخر به الشيخ آل مبارك: «انصب اهتمامي على رعاية شؤون المسلمين امتثالاً لدور الدولة في رعاية هذه الشؤون في العالم.. «فالأقلية الإسلامية هناك كانت تتعامل سلبياً مع واقعها، خاصة في جانب التعليم.. وكان دورنا هو تحفيزهم على التعامل الإيجابي والاهتمام بالتعليم سعياً إلى بناء أنفسهم ثقافياً وصناعة الكوادر. فضلاً عن ذلك كنا نقدم لهم التسهيلات والمنح الدراسية والمساعدات الأخرى».

شـهـادة

سألناه: ألم يُفسر هذا النشاط على أنه تدخل في الشؤون الداخلية الغانية؟ **فقال:** «**كنا نتعامل** مع مواطنين غانيين، وعلاقتنا بهم هي المساندة الثقافية والصحية والإنسانية على أساس احترام سيادة بلادهم وقوانينها. والدبلوماسي يجب عليه أن يكون حكيماً. والخطوط العريضة للدبلوماسي السعودي تتركز في العمل الدبلوماسي البعيد عن التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد التي يعمل فيها».

وسألناه: عاصرتم ثلاثة وزراء خارجية في البلاد: الملك فيصل، إبراهيم السويل، الأمير سعود الفيصل.. فكيف تضع قراءة سريعة لهذه الشخصيات..؟ **فقال:** «الملك فيصل، رحمه الله، كان مضرب مثل في تصريف الأمور المعقدة. كان يعرف كيف يتصرف، كان يبسط الأمور ويضع لها حلولاً حاسمة وحكيمة. وابنه الأمير سعود الفيصل ينطبق عليه المثل القائل: (الفتى سر أبيه). أما الشيخ إبراهيم السويل فقد كان دبلوماسياً لبقاً ناجحاً».

صور الموضوع: من أرشيف الشيخ أحمد آل مبارك، الصورة الشخصية: تصوير حسن البقشي



انضم أخيراً إلى جسور المملكة جسر جديد خلاب هو جسر وادي لبن قرب مدينة الرياض (الغلاف). وهو جسر تخاله طائرين مندفعين إلى أعالي السماء..
فأي سحرٍ يمثله الجسر، أي جسر؟ هذا القوس الممتد أبداً بين نقطتين.. الحاضر دوماً كي تعبره إلى مواقع تعذرت عليك من قبل؟ يحملك من هنا إلى هناك وكأنه ينقلك على راحتيه، من بر أمان إلى بر أمان آخر. وحين تعبر الجسر، لا يفارقك الشعور بالخطر، فأنت تقف على الـ (فراغ) وعلى الأرض في آنٍ واحد. إنهما إحساسان متناقضان لا يفترقان ولا يفارقانك حتى تصل: خوف المتحسب من القدر واطمئنان الواثق بفن البناء. فلنعبر معاً جسراً.. يليه جسر.

الجسر ..فن جمع الحسابات الباردة والجمال



جسر أم تحفة معمارية؟

في البداية يكون الجسر مشروع بناء مسخر لأداء مهمة عملية، فهو مطالب بالمتانة والصمود والتحمل. ولذا، فهو ابن الدراسات العلمية والحسابات الباردة. ولكن... منذ بداية رسم الخطوط الأولى للجسر، أي جسر، يظهر جمال الشكل في كفة ميزان موازية لكفة أخرى تحمل الحسابات الباردة. وبعض السر يكمن في أن قوة الجسر أو قدرته على التحمل لا تأتي من متانة المواد المستخدمة في البناء، بل أيضاً في انسياب خطوطه.

القوس الشاعري المنساب من أشهر هذه الخطوط. تكرار الأقواس في الجسور الطويلة يوجد إيقاعاً هندسياً، أو قل موسيقياً، يزداد وضوحاً في تناقضه مع وعورة الطبيعة إذا كان هذا الجسر فوق وادٍ صخري مثلاً. ويتناغم هذا الإيقاع المتكرر تماماً مع صفحة الماء وإيقاع تكسر الضوء عليه أو على أمواجه. الأمر نفسه ينطبق على تكرار حبال الصلب في الجسور المحمولة، التي تتجمع وتنفرد في خطوط مستقيمة ومنحنية في إيقاع متكرر يزرع في النفس شعوراً مزدوجاً بين تحدي قدرات الفرد منا على تحقيق إنجاز مماثل وحميمية الأشكال المألوفة في النسيج أو خيوط العنكبوت...

حتى القرن التاسع عشر كانت الزخرفة جزءاً لا يتجزأ من مشروع بناء أي جسر، ولا سيّما تلك التي كانت تقام على الأنهار في المدن. وبعضها كان مبالغاً في زخرفته وتجميله حتى أنه استدعى الاستعانة بأعمال كبار الفنانين ونحاتي الحجر، كما في عصر النهضة الأوروبية.

«كل ما تحتويه أمريكا من الفن يتمثل في الجسور ونظام مجاري المياه.»

مارسيل دوشامب، فنان فرنسي

في العصر الحديث غابت الزخرفة الفنية المضافة بشكل مصطنع إلى الجسر لتحل محلها رشاقة خطوطه العامة وانسيابها، ذلك لأن الصناعة الحديثة وفَّرت مواداً جديدة أدق وأقل حجماً وأكثر تحملاً من الحجر الصخري أو الخشب أو باقي المواد القديمة، فازدادت خطوط الجسور الحديثة رقة، وفتحاته اتساعاً، وظهرت أنماط حديثة من الجسور، مثل الجسور المعلقة التي ما كان يمكنها أن تظهر قبل تطور صناعة الصلب.



برجا جسر البوابة الذهبية في سان فرنسيسكو (رويترز)

وسواء أكانت هذه الجسور قديمة أم حديثة، وبعيدة جداً عن الغاية الأساسية من إنشائها، فإنها تحولت بمرور الوقت بشخصيتها الفنية والمعمارية إلى معالم حضارية دامغة تَسِمُ هذه المدينة أو تلك بسمتها.

من دون جسورها التاريخية لا يمكن للعاصمة الفرنسية باريس أن تُكوِّن نفسها. ومن أشهر بطاقات البريد في بريطانيا تلك التي تظهر "جسر البرج". ولا يستطيع المرء أن يأتي على ذكر مدينة سان فرنسيسكو الأميركية من دون أن يخطر بباله جسرها الأحمر المعروف باسم "البوابة الذهبية".

المفارقة، أن كبار المهندسين والمعماريين الذين بنوا أجمل جسور العالم لم يحظوا بشهرة تماثل شهرة منجزاتهم. وهناك حكاية تُروى في هذا الصدد مفادها أنه خلال افتتاح جسر "فيرازانو" في نيويورك نسي رئيس الاحتفال أن يذكر اسم أوتمار أمان باني الجسر المذكور وأحد أشهر مصممي الجسور في القرن العشرين.

(أرشيف المحترف السعودي)

جسران من العاصمة الفرنسية: جسر ياتا الحجري، وجسر الفنون المعدني للمشاة

بعض أشهر جســـور العـالـم

جسر البوابة الذهبية

وهو من أكبر الجسور المعلقة في العالم يربط شبه جزيرة سان فرانسيسكو بشمال كاليفورنيا. يبلغ طول هذا الجسر 2727 متراً ويعتمد على برجين يحمل كل منهما كابلين من الفولاذ بقطر 93 سنتيمتراً. وتتدلى من الكابلين مجموعة أخرى من الكابلات العامودية تحمل أرض الجسر، وهو من تصميم جوزف ب. شتراوس، وتم افتتاحه في 27 مايو 1937م.

جسر التنهُّدات

من أشهر جسور البندقية رغم قصره النسبي. يصل هذا الجسر ما بين قصر الدوق والسجن، وسمي بذلك، لأن المسجونين كانوا يعبرونه إلى حيث المحكمة وتنفيذ الأحكام فكأنه ممر بين الحياة والموت. صممه المهندس المعماري الإيطالي أنطونيو كونتينو سنة 1560م، وأكمل بناؤه سنة 1600م. تغنى به الشاعر

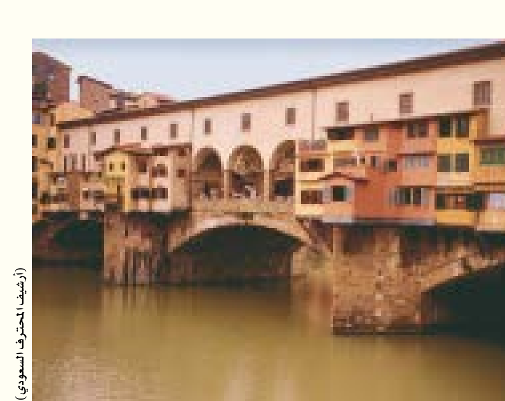




الإنجليزي اللورد بايرون، ونسج حوله الكاتب الفرنسي الكسندر دوماس رواية تحمل اسمه.

الجسر الجديد

اسمه على عكس حقيقته، فهو أقدم جسر في العاصمة الفرنسية باريس وأكثرها شهرة على الإطلاق. بُدئ العمل في إنشائه سنة 1578م وانتهى سنة 1609م، ليصبح منذ ذلك الحين القلب النابض للحياة الباريسية. يتألف هذا الجسر من اثنتي عشرة قنطرة حجرية، ما من واحدة تماثل الأخرى وتتراوح تدرجاً ما بين نصف الدائري ونصف البيضاوي. وقد تعرض لعمليات ترميم وتجديد عديدة ولا يزال حتى اليوم الأكثر حيوية في باريس.



المساكن والسوق فوق جسر بونتي فيكيو في فلورنسا

جسر البوسفور في اسطنبول

من أشهر الجسور ويربط قارتي آسيا وأوروبا فوق مضيق البوسفور. وعندما أنشئ هذا الجسر سنة 1973م كانت فتحته، بين البرجين البالغة حوالي 1074 متراً، أكبر فتحة جسر في أوروبا والرابعة في العالم.

جسر البرج

انتهى بناؤه سنة 1894م، وكان سكان العاصمة البريطانية في انتظاره على أحرّ من الجمر، لأن "جسر لندن" القديم لم يعد قادراً على تحمل زخم الحركة المتزايدة بسبب تنامي الشطر الشرقي من لندن. يحمل هذا الجسر برجان حجريان من الهندسة القوطية المجددة، وقد لقي لدى بنائه استهجاناً من قبل النقاد، ووصفه البعض بأنه "قبيح لدرجة وحشية". ولكن بمرور الوقت صارت المواقف منه أكثر ليونة. وتحوّل اليوم إلى واحد من أكثر معالم لندن شعبية.



(رويترز)

جسر البرج في لندن



(رويترز)

جسر بروكلين

«العمل الذي يرجح أن يكون أطول صروحنا عمراً، ويعطي بعض المعرفة عنا للأجيال المقبلة، وهو عمل ذو فائدة بسيطة، إنه ليس قلعة ولا قصراً، إنه جسر.»

مونتغومري شويتر
في حديثه عن جسر بروكلين
1883م.

جسر بروكلين في نيويورك

وضع تصميمه الأساسي العبقري جون روبلنغ، وتم تدشينه فعلاً سنة 1883م. ولضخامة مشروعه، أطلق عليه لسنوات اسم «الجسر العظيم». إنه من الجسور المعلقة التي تحملها أبراج حجرية، ومن أشهر معالم أميركا على شاطئ الأطلسي، إذ كان هذا الجسر أول ما يشاهده المهاجر من العالم القديم إلى العالم الجديد.

(رويترز)

جسر ميناء سيدني

جسر ميناء سيدني

قد لا يكون القوس الحديدي فوق ميناء العاصمة الاسترالية سيدني الأطول في العالم، ولكنه الأشهر بلا شك. تم بناؤه سنة 1932م، وهو يتسع لأربعة مسارب للقطارات، وثمانية للسيارات، إضافة إلى ممرات للمشاة. ويبلغ عرضه المدهش 49 متراً.

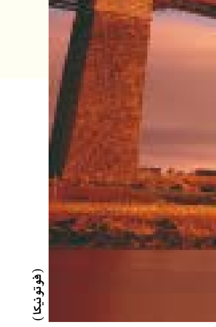
من أغرب الجسور في فلورنسا

جسر بونتي (فيكيو) في فلورنسا. وهو في الواقع أكثر من جسر، إذ يضم طريقاً وسوقاً وميداناً عاماً ومساكن، يبلغ طوله نحو 100 متر. وقد صممه كاديو كادي الذي اشتهر كمعماري ورسام في القرن الرابع عشر الميلادي. وفي سنة 1944م دمر الألمان كل جسور فلورنسا ما عدا جسر بونتي فيشايو بأمر شخصي من هتلر..!

الجسر الرابع في اسكتلندا

تحفة الهندسة المعمارية في العصر الفيكتوري، بناه المهندسان بنيامين بايكر وجون فولر كجزء من سكة الحديد في اسكتلندا. وكان عند تدشينه سنة 1890م أضخم جسر في العالم نظراً لكمية المعدن التي صُنع منها، كما أن الممرات من تحته كانت الأوسع آنذاك (107 أمتار).

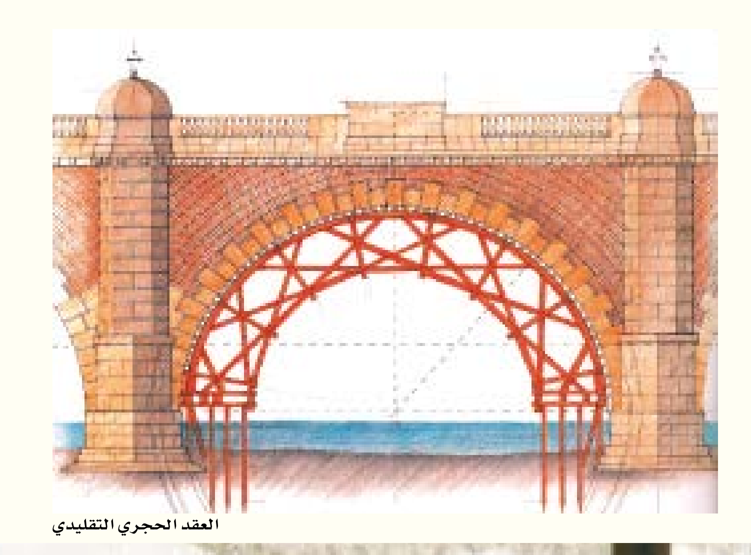




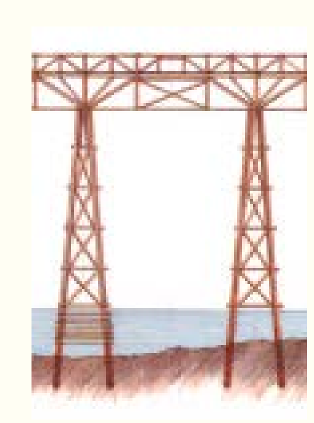
جسر فورث ريل في اسكتلندا

هندسة الجسر جسر الهندسة

الجسر معبر يربط ضفتي نهر أو يعبر فوق عائق طبيعي كالوادي الحاد والوعر، فمنذ القدم فكّر الإنسان في اجتياز العقبات الطبيعية والعبور إلى الطرف الآخر بحثاً عمّا يحتاج إليه هناك. قد تكون هذه العقبة نهراً أو وادياً شديد الانحدار، فكان أن أمدته الطبيعة بالحلول الأولى.



العقد الحجري التقليدي





القوس المعدني يساعد الأسلاك في حمل جسر البوابة الذهبية الشهير

لا بد أن سقوط شجرة على مجرى ماء كان من أول هذه الحلول. ودعم الإنسان هذا الحل بوضع أحجار متفرقة ليعبر عليها. وعندما عرف صناعة الحبال صنع منها جسوراً ... وهكذا راح بناء الجسور يتنوع ويتطور من الخشب إلى الحجر ثم المعدن والإسمنت وغيره...

هناك أنواع عديدة من الجسور مثل جسور العوارض، والجسور المعلقة، والجسور المعقودة، والمشدودة، والمسقوفة، والمتحركة، والعائمة. وهناك جسور خاصة بالقطارات، وأخرى لجر المياه، وفوق تقاطع الطرق وبين المباني. وبصفة عامة تتخذ تصاميم الجسور ثلاثة أشكال:

– أفقي التصميم :على شكل خط مستقيم، يربط الجانبين ويرتكز إلى ركيزتين، ويُعتمَد على هذا النمط عندما يكون طول الجسر قصيراً نسبياً.

– الجسر المعلق: ويتكون من الألياف المجدولة أو الأسلاك أو الحديد، ويستند إلى كوابل أو أكتاف من الجانبين، وقد شاع هذا النوع من الجسور في القرن العشرين بسبب تطور صناعة الصلب.

الجسور المعلقة وليدة تطور الصناعة المعدنية وخفة مواد البناء

– على هيئة عقود حجر أو أقواس: وقد اعتمد هذا النوع منذ العصر الروماني لعبور القنوات المائية ولجر المياه أيضاً إلى الأماكن القاحلة. ولا تزال بقايا بعض ما بناه الرومان قائمة حتى اليوم في أماكن عديدة في دول حوض المتوسط.

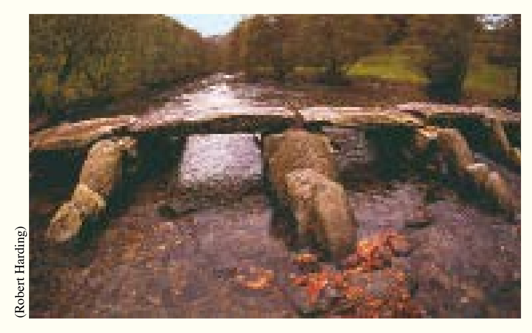
وتتميز العقود من الناحية الإنشائية بأن القوى الداخلية التي تتولد فيها – نتيجة الأحمال الرأسية الواقعة عليها – هي قوى ضاغطة. وييسر هذا استخدام المواد التي تتحمل الضغط، ولا تتحمل الشد في إنشائها مثل الحجر الطبيعي أو الصناعي. ولدى بناء أي جسر، حتى أكثرها بدائية، لا بد لورشة البناء هذه من أن تأخذ في الحسبان أولاً القوى والضغوط التي على الجسر أن يتحملها. وهذه القوى هي في الأساس ثلاث، تسمى "الأحمال ":

– الحمولة الميتة: ويقصد بها وزن الجسر نفسه.

– الحمولة الحية: ويقصد بها حركة العبور التي سيشهدها سطح الجسر وما تمثله من أوزان مختلفة ومتقلبة ثقلاً وخفة.

– ضغوط المحيط: مثل الرياح والمياه وحركتهما.

إلى ذلك تضاف مجموعة مؤثرات لا بد من أخذها في الحسبان، مثل التقلب الحراري وآثاره في تمدد الجسر أو تقلصه. ويصبح هذا المؤثر بالغ الأهمية في الجسور الطويلة نسبياً واحتمالات هبوط الركائز أو غورها في أرض غير مستقرة والهزات الأرضية وما شابه ذلك.

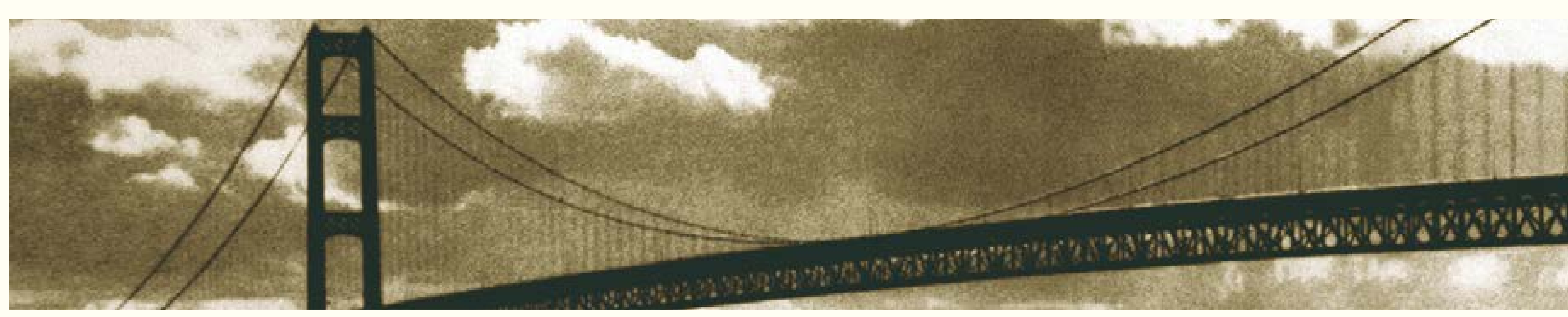


(Robert Harding)

الجسر في أبسط أشكاله

جسور الحرب جسور السلام

في حرب أكتوبر عام 1973م استخدم الجيش المصري جسوراً عائمة لعبور قناة السويس ومن ثم اخترق خط بارليف. هذا مثال بسيط لدور الجسور في الحرب. وبقدر ما كانت الأنهار والأودية والجبال حصوناً طبيعية، كانت الجسور عامل النصر أو الهزيمة، عامل اختراق لهذه الحصون.



ومنذ القدم ارتبطت أسماء الجسور بالمعارك. ففي خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقعت معركة الجسر بقيادة أبي عبيدة بن مسعود عام 13 للهجرة، إذ أن المسلمين بعد تقدمهم في بلاد فارس وانتصارهم في معركة النمارق ومعركة السقاطية على الفرس، فوجئوا بالفرس يحشدون كل جيوشهم وكبار قادتهم خلف الجسر. وهُزم المسلمون في تلك المعركة، واستشهد أكثر من 4 آلاف منهم، بين غريق وقتيل بعد ما هدم الفرس الجسر. ولكن المثنى بن حارثة الشيباني تمكن من إعادة نصبه وأنقذ حياة كُثر عبروه.

وفي القرن العشرين لعبت الجسور العائمة دوراً كبيراً في الحرب العالمية الثانية لاستخدامها لعبور الأنهار مؤقتاً. وكانت من أسباب النصر لكونها بوابة غير متوقعة للدخول إلى المناطق المحصنة طبيعياً

.. وغالباً ما تركّب بسرعة برص صنادل عائمة اشتهر بصنعها المهندسون العسكريون.

ولكن جسر موستار هو أشهر جسر ارتبط اسمه بالحرب والسلم في العصر الحديث، لأنه بُني للسلم ودمرته الحرب. إذ بناه ضابط تركي على نهر نيرتافا (درينا) فخدم التعايش بين أعراق البوسنة المختلفة أربعمائة عام، إلى أن دُمّر في حرب البوسنة عام 1993م. وزادت شهرته لكونه مسرحاً للرواية المشهورة «جسر على نهر درينا»، التي فاز كاتبها إيفو أندريك بجائزة نوبل للآداب.

(كوربيس)

«.. دوماً كان همهم الجسر ... كانوا ينظفونه ويجملونه ... ويصونون قواعده. يأخذون ماء الشرب من تحته وعليه، ويضيئونه بالكهرباء ... لكنهم يوماً ما فجّروه في السماء كأنه قطع أحجار وليس قطعة فن أو نفحة جمال.»

إيفو أندريك
(رواية جسر على نهر درينا)

«ماكلوش اشترى جسراً لم يحتجه لنهر لم يكن يملكه»

من كتاب «جسور» لـ جوديث دوبري

قصة جسر

في سنة 1962م بدأ رجل الأعمال الأمريكي روبرت ماكلوش بإقامة مدينة جديدة تُدعى هافاسو في صحراء أريزونا، ورغب في بناء جسر فوق بحيرة اصطناعية كان يخطط لها في وسط المدينة.

في الوقت نفسه، كان جسر لندن القديم يغوص تدريجياً في نهر التايمز نتيجة وزنه الكبير وتحرك التربة من تحته، فسارع ماكلوش إلى شراء الجسر بمبلغ 2,460,000 دولار سنة 1968م، ولم تكن بحيرته الاصطناعية قد أنشئت آنذاك.

وخلال عملية تفكيك الجسر حجراً حجراً في لندن لإعادة بنائه في هافاسو، والتي استغرقت ثلاث سنوات، تم شقّ قناة من بحيرة هافاسو لتعبر منتصف المدينة ولتمر من تحت الجسر الجديد الذي اكتملت إعادة بنائه سنة 1971م.



جسر السينما

من أشهر الأفلام التي ظهر فيها الجسر فيلم «جسر من بعيد» وتدور أحداثه حوله رواية أثناء الحرب العالمية الثانية، سنة 1944م، إذ يدمّرجسر في «أرنهايم» في هولندا، ليقطع إمداد العدو النازي. وهناك تحفة ديفيد لين «جسر على نهر كواي» عن عدد من أسرى الحرب البريطانيين يحاولون أن يشيدوا جسراً ، على الرغم من علمهم بأن العدو سيستخدمه في نقل المؤن والعتاد. واشتهر في هذا الفيلم وليم جولدن وسير أليك جينس. وتلاه فيلم «لمن تدق الأجراس» رائعة أرنست همنجواي، التي تحكي عن مهمة بالغة الخطورة لتفجير أحد الجسور أثناء الحرب الأهلية الإسبانية.



السير اليك جينس في فيلم «جسر على نهر كواي»

هناك أيضاً فيلم «جسور على توكوراي». الذي دارت أحداثه أثناء الحرب الكورية، عن طيار تتجاذبه مشاعر متضاربه أثناء تكليفه مهمة تدمير جسر محصّن.

وثمة قصص حب أيضاً كان مسرحها «الجسر». ومن أشهرها «جسر واترك» ثم «جسور ماديسون كاونتي» وبطولته لكلنت إستوود وميريل ستريب في عام 1995م. والجسر، رمز للعبور إلى المجهول، استخدم في فيلم «إنها حياة طيبة» وبطولته لجيمس ستيوارت، وتدور قصته حول جورج بيلي، وهو مواطن مفلس يهم بالقفز من أحد الجسور. ونذكر هنا بعض الأفلام التي استخدمت الجسور فيها كمعالم تاريخية:

«باثان» 1943م، «جسر الطريق الراجع» 1965م، «الولد والجسر» 1959م، «الـ 39 خطوة» 1935م، «جسر راماجن» 1959م، «جسر واترلو» 1931م، «المجموعة المتوحشة» 1969م. «جسور ماديسون كاونتي»، «جسر سان لوي راي» 1944م، «جسر بروكلين» 1981م، «سر من بعيد» 1977م، «معبر كاسندرا» 1976م، «جسر نهر كوكو - راي» 1954م.



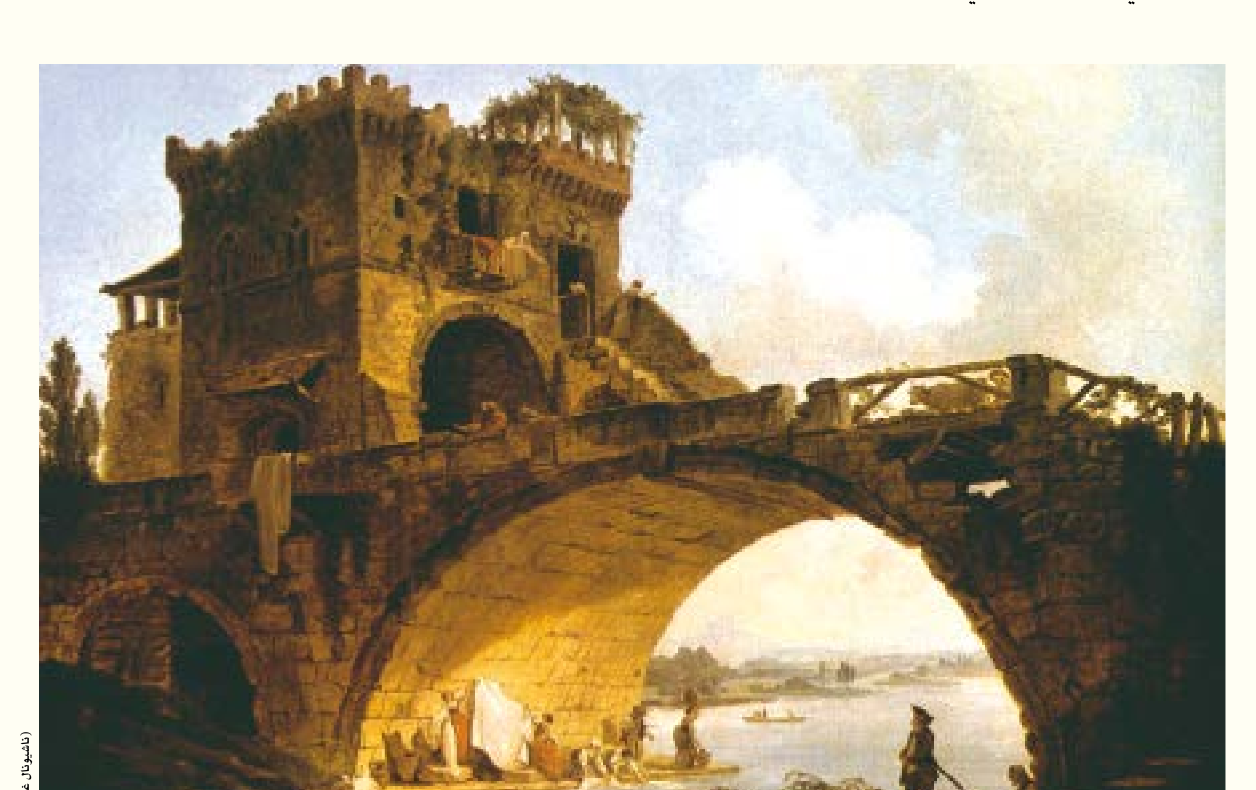
كلينت ايستوود وميريل ستريب في فيلم «جسر مقاطعة ماديسون»

فن الجسور في.. الفن

في سبتمبر 1985م، وبإشراف الفنانين كريستو وجان كلود، قام ثلاثمائة عامل بتغيير معالم "الجسر الجديد" في باريس من خلال لفه بقماش ذهبي اللون، وتوضيبه بواسطة الحبال. وبقي الجسر "موضباً" لمدة أربعة عشر يوماً. كان هذا من آخر صيحات الفن الحديث في تعامله مع الجسور. ولكن قبل ذلك بكثير كان الجسر حاضراً في الأعمال الفنية الكبرى، فكرمته كموضوع ريشة كبار الفنانين. وما بين عصر النهضة والقرن التاسع عشر يمكننا أن نرى الجسر في العديد من اللوحات، وكأنه جزء لا يتجزأ من المحيط الطبيعي الذي ينتمي إليه الإنسان. نراه صغيراً جداً في لوحة للرسام الفلامنكي جان فان إيك، وخلف "الموناليزا" في تحفة ليوناردو دي فنشي. ونراه أيضاً بأحجام متفاوتة في لوحات بوتيشيلي ورافائيل وبوسان.

وفي المدرسة الرومنطيقية صارت أطلال الجسور الحجرية من الموضوعات البارزة. ومع اتجاه فن الرسم صوب الطبيعة في القرن التاسع عشر وما بعده احتلت الجسور مكانة أوسع فأوسع في رسوم الفنانين. وعلى سبيل المثال فقط، نشير إلى أن رائد الانطباعية كلود مونيه أنشأ في حديقة منزله جسراً خشبياً صغيراً، خلّده في العديد من لوحاته، إضافة إلى ولعه برسم الجسور الأخرى مثل جسر "آرجانتوي"، شأنه في ذلك شأن باقي الانطباعيين الذين شدتهم إلى الجسور لعبة أشكالها الهندسية وتلاعب الضوء في صفحة الماء.

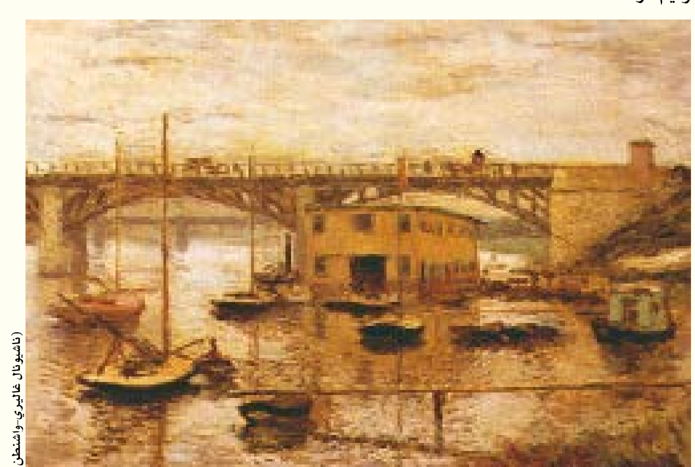
ومن أشهر الجسور التي خلدها الفنانون جسور العاصمة الفرنسية الاثنين والثلاثين، وجسر البرج في لندن، وجسر "ريالتو" في البندقية الذي خلده الرسام الإيطالي كاناليتو في العديد من لوحاته. ويظل جسر بروكلين الأكثر شهرة، لكثرة ما تناوله المصورون والرسامون وخاصة من تيار البوب آرت الذي ظهر وانتعش في نيويورك.


(ناشيونال غاليري - واشنطن)

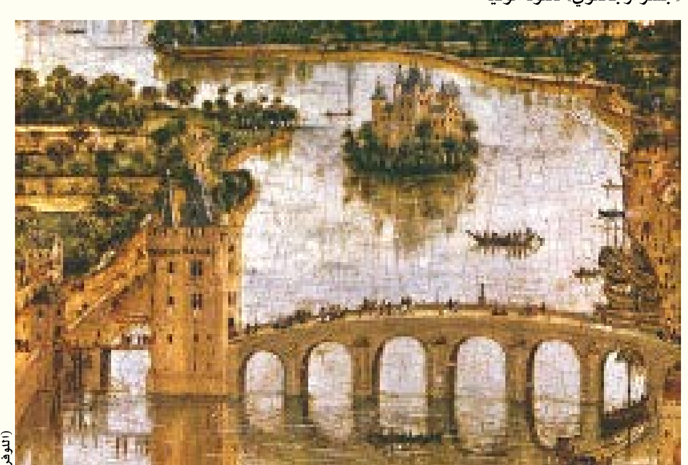
لوحة للرسام الفرنسي هوبير روبير


(الأرميتاج)

وليم هولست


(ناشيونال غاليري-واشنطن)

«جسر أرجانتوي» لكلود مونيه


(اللوفر)

جزء من لوحة للفلامنكي جان فان إيك

جسر المغنى

حظي الجسر بحضور كبير في الأغنية الغربية عموماً، فهو مكان مثير للتأمل وللمشاعر، حوله يلتهب الخيال وعبره وأسفله يكون الجلوس، وبين طرفيه ينقسم العالم، وعلى سياجه تُذرف الدموع وتحته يُنثر الماضي وفوق سمائه تبدأ حياة جديدة...

حمَلت الأغنية الغربية الجسر كل أفراحها وأحزانها وجعلته رمزاً يتجاوز المكان والزمان... وكم من أغنية كان الجسر موضوعها أو مكان قصتها، أو حتى جزءاً من لقطاتها المصورّة. وكم من مغن غنى عليه أو غنى عنه. وكم من أغنية حملت اسمه! ... ولا ننسى أن الاحتفاء الأكبر بالجسر حوته موسيقى وأغاني الجاز ... فأي اعتراف بالرمز والمعنى هذا؟

أنظر إلى أسماء هذه الأغاني:

Bridge to a Legacy	The Other Bridge
Bridge of Sight	The Natural Bridge
Burning Bridges	Behind the Bridge
Bridge to the Unseen	Script of the Bridge
Bridge to the Northern Lights	Echo Bridge

وهناك جسور تدين بشهرتها العالمية إلى الأغنية مثل جسر (أفينيون) في فرنسا. وعندنا، في الشرق، تشاء ظروفنا أن يرتبط الجسر بهمومنا الوطنية. ولعل أهم ما كتب فيه كان ما وضعه الأخوان رحباني وغنته فيروز العام 1969م بعنوان "جسر العودة"، وأرقّ منه "يا جسراً خشبياً"، أو ما لحّنه فلمون وهبي لفيروز "على جسر اللوزية".

والقصيدتان الأوليان تدوران حول "جسر اللنبي" الذي كان المعبر الوحيد بين الأراضي المحتلة في فلسطين والضفة الشرقية لنهر الأردن. وتقول:

يا جسراً خشبياً يسبح فوق النهر
ضحك الفجر وحيا وصحت قمم الدهر
لونك فرح الماء وبك العطر يجن
أخشابك أفياء تحت الخطو تئن
وبصمت وصفاء ينطلق الأردن
يزرع في الأوداء مواسمه القدسية



الجسور في المملكة

هنالك الكثير من الجسور في المملكة العربية السعودية، من أشهرها، جسر الملك فهد الذي يربط بين البحرين والمنطقة الشرقية. ويعد جسر الملك فهد خطوة مهمة من خطوات التحدي الحضاري، حيث يشهد حركة انتقال حيوية من الاتجاهين على مدار ساعات اليوم.

وتستخدم المملكة الكثير من جسور الطرق لاجتياز العقبات والأودية مثل عقبة وادي شعار.
ويوجد الكثير من الجسور على طريق الطائف حيث المرتفعات العالية. كذلك تبنت حكومة خادم الحرمين الشريفين بناء الكثير من الجسور في مكة المكرمة لربط المناطق المقدسة وتسهيل حركة الحجاج. ويعتبر جسر شارع الخليج بالرياض أحد الروائع العصرية في مجال الطرق والجسور، بما احتوى عليه من إنشاءات، وما تضمنه من أساليب بالغة الحداثة في التصميم والتنفيذ.

وقد أدى التقدم المستمر في أساليب البناء والخبرات الفنية في مجال التصميم إلى حلول عصر الجسور ذات الفتحات الطويلة التي استخدمت بالمملكة لعبور المناطق الصخرية المزدوجة، منها على سبيل المثال جسر تقاطع قصر الخليج بالمنطقة الشرقية. ولم يكن بالإمكان كسر حدة العزلة التي تعانيها المناطق المزدحمة بالسكان بين السراة وتهامة إلا باستخدام شبكة من الطرق الجبلية منها مجموعة من الجسور في عقبة وادي ستار وجسور وادي حنيفة ووادي لبن.

(أرشيف المحترف السعودي)

جسور عبر الجبال

جسر الملك فهد

يتكون جسر الملك فهد من ثلاثة مسارات متوازية مع اعتبار المسار الثالث للطوارئ. يبلغ طول الجسر نحو 25 كيلومتراً، ويبدأ من منطقة العزيزية جنوب منطقة الخبر في الجانب السعودي، وفي الجانب البحريني يبدأ الجسر من المنطقة التي تقع إلى الغرب من العاصمة المنامة، وقد أنشئت جزيرة صناعية مزدوجة في عرض البحر مساحتها 660,000 متر مربع، كما تم إنشاء عدة طرق تربط الجسر بشبكة الطرق الداخلية في كل مكان من المملكة العربية السعودية والبحرين بطول 32 كلم إلى مدينة الخبر – الظهران وبطول 13 كيلومتراً حتى مدينة المنامة، وقد اكتمل العمل فيه سنة 1986م.

جسر شارع الخليج في الرياض

يتألف جسر الخليج من قسم لطرق السيارات بطول 4600م، ويحتوي على جسر من الخرسانة مسبقة الإجهاد بطول 2200م، ونفق تحت الأرض بطول كيلومتر واحد، مما يشكل تقاطعاً ذا ثلاثة مناسيب يحتوي على ما يلزم من جسور علوية وطرق منحدرة، وطرق للخدمة، وأقواس، وممرات للمشاة، وشبكات للصرف الصحي والإنارة والحدائق والمزروعات. ويتكون هيكل الجسر من أرضية ذات ثلاثة أبعاد وأعماق مختلفة، ودعائم يبعد كل منها عن بعضه البعض 102 م، مع قوس رئيسي طوله 130م. ويتألف الجسر من 1220 قطعة يصل وزن بعضها إلى مائة وأربعين طناً، ولكل منها تصميم خاص بحيث لا توجد بينها قطعتان متماثلتان، مع مراعاة تطابق نهاية كل جزء من الجزء المجاور باستعمال مادة "أبوكسي" اللاصقة، وشد الأجزاء إلى بعضها بواسطة كابلات ذات ضغط عال مسبقة الإجهاد.

جسر وادي حنيفة ووادي لبن:

يحمل هذان الجسران العاليان الطريق السريع الذي يربط بين الرياض ومكة المكرمة بعرض ستة مسارات بين واديين عريضين سحيقين من جنوب غرب الرياض. ويبلغ عرض وادي حنيفة حوالي 700م وعمقه 55م، كما يبلغ عرض وادي لبن حوالي 1200م وعرضه 90م.

جسور جدة الجميلة

أنشئت في جدة جسور خشبية رائعة فوق الطرق الرئيسية لعبور المشاة. وهي جسور معلقة على أقواس خشبية ضخمة، وأغلبها على طريقي المدينة المنورة ومكة المكرمة حيث الشوارع عريضة والمارة كثر.

جسر المشاة في جدة


(أرشيف المحترف السعودي)

جسر الملك فهد



جسر وادي لبن

ضربٌ من العشق.. لا دربٌ من الحجر..

الجسور العربية

اتخذ بناء الجسور في المدن العربية الواقعة على ضفاف الأنهار منحىً بالغ الأهمية بدءاً من القرن التاسع عشر، بسبب نموها المتسارع.

ومن أشهر الجسور التي بنيت آنذاك جسر قصر النيل في القاهرة، الذي أنشأه الخديوي إسماعيل في إطار إعادة تخطيط عام للعاصمة المصرية وتحديثها. الأمر نفسه ينطبق على العديد من الجسور التي بُنيت آنذاك في العديد من العواصم العربية مثل بغداد التي يخترقها نهر دجلة، والخرطوم الواقعة على نهر النيل.

وفي قلب العاصمة السورية دمشق تقاطع طرق حيوية يُعرف حتى اليوم باسم جسر فيكتوريا. ويعتقد البعض أن الجسر الحديث القائم هناك هو الذي يحمل هذا الاسم ولكن الواقع أن جسر فيكتوريا هو الطريق الذي يبدو عادياً جداً تحت الجسر الحديث. ففي أواخر القرن التاسع عشر استعدت دمشق لاستقبال ملكة بريطانيا فيكتوريا. وبنت لهذه الغاية فندقاً خاصاً (مكان فندق سمير أميس حالياً) وقبالته جسراً. ولكن فيكتوريا لم تأت. وبمرور الوقت تمت تغطية نهر بردى في أماكن كثيرة، فاندمج الجسر بغطاء النهر، وتمت تغطيته بالأسفلت. فضاعت معالمه، ولم يبق منه غير الاسم.



جسر قصر النيل في القاهرة في صورة تعود إلى بدايات القرن.

الجسر في اللغة

دخل الجسر لغتنا العربية مرادفاً لكلمة «علاقة». فكثيراً ما نسمع عن «مد الجسور بين فلان وفلان» أي نسج علاقة وفتح باب اتصال بين الطرفين. أما «نسف الجسور» فيعني قطع علاقة كانت قائمة بين طرفين.

ويستعمل الجسر أيضاً للتشبيه. فيقول العامة في معرض حديثهم عن الشاب الوسيم وطويل القامة إنه «مثل الجسر»، وقد يكون مرد التشبيه عرض المنكبين، أوتقوس الظهر إلى الخلف الذي يظهر بوضوح أكبر للمشاهد قصير القامة.

وللكثيرين من فرنسيين وغيرهم استعمالهم المجازي الخاص لكلمة الجسر. فعندما يقول أحدهم: أنه «سيعمل جسراً»، فهذا يعني أنه يربط عطلة نهاية الأسبوع مثلاً بيوم عطلة يقع بعد يوم أو يومين من العمل، فيأخذ من تلقاء نفسه بوساطة هذا الجسر عطلة لمدة خمسة أيام!!

هذا الذي طار بالواحات للجزر..

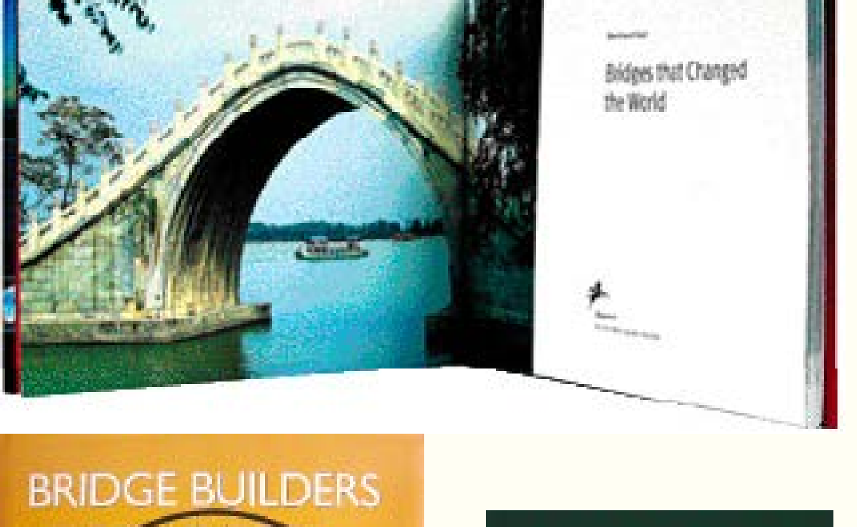
غازي القصيبي

كتب في الجسور

تعجّ المكتبات الغربية بمجموعة مدهشة من الكتب الفنية حول الجسور وتاريخها وأشكال هندستها وآثارها الاجتماعية والحضارية

1- "بناة الجسور"

من تأليف مارتن بيرس، وريتشارد جوبسون اللذين يتحدثّان عن الجسور بصفتها من أعظم الإنجازات العمرانية التي حققها الإنسان. ويتقدم استعراض الجسور نص يُشير إلى دور الجسور في التحولات الاجتماعية والتاريخية التي حصلت في أوروبا وأمريكا خلال القرن العشرين وما قبله. مزيّن بثلاثمائة وثمانين صورة، وصادر عن دار ويلي- أكاديمي، إنجلترا.

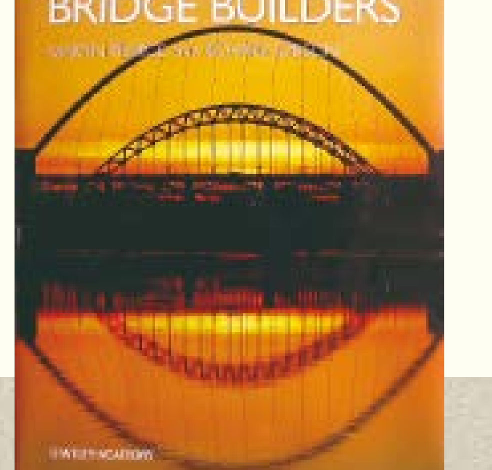


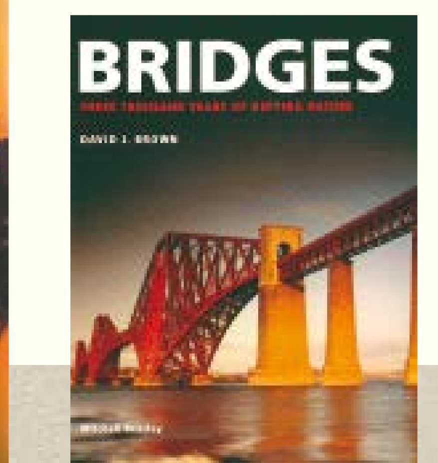
2- جسور غيّرت العالم

صادر عن دار «بريستيل» العالمية. يتناول 50 جسراً يرى المؤلف برنارد غراف أنها الأهم في العالم، ويمتاز بجمال الصور، وحسن اختيار الجسور.

3- "جسور" ثلاثة آلاف سنة من تحدي الطبيعة

كتاب رائع يروي تطوّر الجسور منذ أقدمها وأكثرها بدائية إلى أحدث ما توصلت إليه تقنيات بناء الجسور في العصر الحديث. من تأليف دايفيد براون، وتوزيع دار أوكتوبوس في لندن.





4- "الجسور"

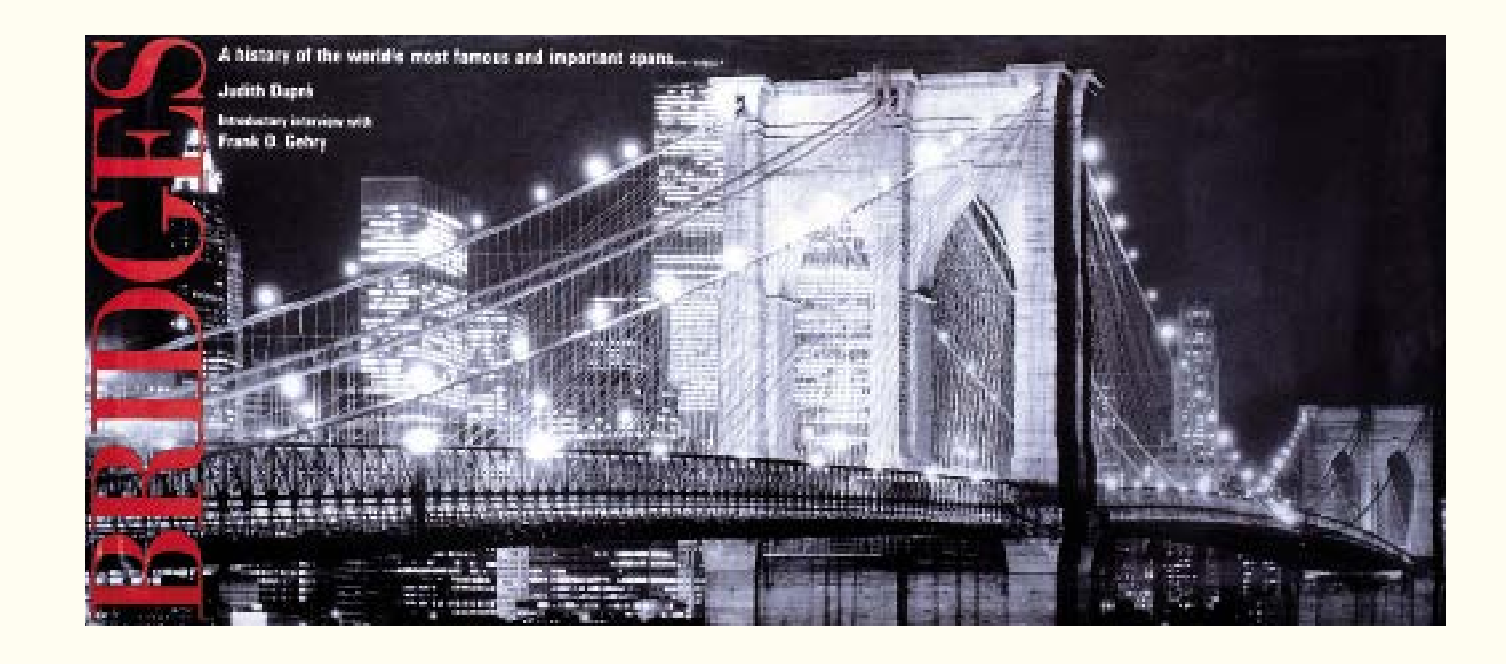
تحف معمارية

من تأليف البريطاني ليونيل براون ومنشورات دار «توتري» نيويورك. يختلف هذا الكتاب عن الآخر في أنه يعتمد على الصور الفوتوغرافية الملوّنة، ويتوسع أكثر من الكتاب الآخر في موضوع الجسور الحديثة، من دون أن يغفل في صفحاته الأولى الحديث عن عدد محدود من الجسور التاريخية. يقع هذا الكتاب في 80 صفحة، وهو متوفر في المكتبات العربية.

5- "جسور"

من أجمل ما كتب حول هذا الموضوع. تتناول فيه المؤلفة جوديت دوبريه خمسين جسراً من أشهر جسور العالم. يقع هذا الكتاب في 128 صفحة، خصت المؤلفة كل جسر بصفحتين، ويتضمن صوراً فوتوغرافية قديمة وحديثة بالأسود والأبيض، ويتميز بإخراج لافت للنظر. فمقاييس الكتاب تبلغ 19 سم عرضاً و46 سم طولاً. ويفرد المخرج بعض الصور على صفحتين فيصل طول الصورة الواحدة إلى حوالي المتر.! وكمقدمة يتضمن الكتاب مطولة مع فرانك أو. جيري، وهو أحد أشهر المهندسين المعماريين في العالم اليوم. الكتاب صدر بالإنجليزية عن دار النشر الألمانية كونمان سنة 1998م. وهو متوفر في المكتبات العربية.

وبالوصول إلى طرفه الآخر، نستودع الجسر الذي نراه تحفة فنية، وانجازاً هندسياً وعمرانياً وموضوعاً لأعمال فنية، ولكن وقبل كل شيء نصرَ على التطلع إليه كواحدة من أقدم وأقوى وسائل الاتصال والتقارب بين الناس والشعوب.





جسر وادي لبن قرب مدينة الرياض